**موقف المسلم**

**من مصائب الأمّة**

إعداد: إبراهيم يوسف منصور

**المقدمة**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المتقين، وقائد الغرِّ المحجلين، المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد بن عبد الله، الذي بلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح للأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى تابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلَّم تسليمًا كثيرًا. أما بعد:

فإنه لا يخفى على أحد ما تكابده الأمة المسلمة في هذه الأعصار من المصائب والهزائم والنكبات والفتن.

بل إنك كلما طالعتَ أو سمعتَ الأخبار عبر أجهزة الإعلام، رأيتَ أو سمعت ما يسوؤك في أمتك، من ضعف قوتها، على كثرة عددها، ومن قلة حيلتها، على وفرة إمكاناتها، ومن تخاذلها أمام الطامعين في ثرواتها، أو المنتهكين لحرماتها، أو المغتصبين لديارها، أو الوالغين في دمائها، أو المجترئين على شريعتها ومسلَّماتها ومقدساتها، افتراءً أو استهزاءً، أو تزويرًا أو تدميرًا.

وإنك حيثما نظرت على ساحة هذه الأرض، من أقصاها إلى أقصاها، رأيت ما يؤلمك ويصدمك، من أقلية مسلِمة مقهورة، أو دولة مسْلِمة مأسورة، أو ثروة مسلِمة منهوبة، أو جماعة مسلِمة منكوبة.

وذلك على أيدي مختلِف الملل والنحل، لا تستثن اليهود ولا النصارى ولا الوثنيين ولا الملحدين، فكل هؤلاء على اختلاف أديانهم وألوانهم وألسنتهم، وعلى تباعد ديارهم وأقطارهم، وعلى تباين مصالحهم وأهدافهم، بعضُهم أولياءُ بعض في عداوة المسلمين.

هذا في الوقت الذي يَخذل فيه المسلمون بعضُهم بعضاً، ويُسْلِم بعضهم بعضاً، استجابة لِولاءات وتحالفات منكورة مريبة محرَّمة، تنطوي على مخالفة صارخة لقوله تعالى:

{ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (55) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (56)}. المائدة.

وقولِه صلى الله عليه وسلم، في حديث الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما، مرفوعًا: ( المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يُسْلِمه )[[1]](#footnote-2) .

ولعل الأشد على الأمة من وطأة أعدائها وخذلان أبنائها، تلك الفتن الداخلية والنزاعات البينية التي ما تزال تثور هنا وهناك، على مستوى الجماعات أو على مستوى الدول، فتفضي إلى التهاجر والتدابر وفساد ذات البين، وإلى التراشق بالسباب والتهم، وقد تنتهي إلى إراقة الدماء واستباحة الحرمات، في تعطيل منكور للنهي الشرعي الجلي في قوله تعالى:

{ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (46)}. الأنفال.

وقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (29) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (30)}. النساء.

وقوله صلى الله عليه وسلم، في حديث الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه، مرفوعًا: ( سِباب المسلم فسوق، وقتاله كفر )[[2]](#footnote-3)

ولهذا، فإن الأمة اليوم أحْوجُ ما تكون إلى الموقف الجاد من أبنائها.

أحوجُ ما تكون إلى من يحمل لها همًا، أو يكشف عنها غمًا، أو يخفف عنها عبئاً، أو ينير له دربًا، أو يحفظ لها حقاً، أو ينافح عنها باطلاً، أو ينصر فيها معروفاً، أو يقمع فيها منكرًا، أو يدْعو لها دعوة، أو يكونُ لها في الخير قدوة.

وذلك لأن من أعظم الخـَطب على الأمة، أن يجتمع عليها كيد أعدائها، وخِذلان أبنائها.

فأما كيد أعدائها، فهو في هذه السنين الأخيرة، في أفحش وأجلى صوره عبر التاريخ، وإن لم يكن أجلاها وأفحشها على الإطلاق.

فقد دونت لنا أسفار التاريخ عبر عصور الإسلام الخالية، وقائع من المكر والكيد الكفري، أسفرت عن فظائع مروِّعة، تحسبها لِفظاعتها ضربًا من الخيال، ولكنها حقائق لا نزال نجد مرارتها كلما ذكرنا الاجتياح الصليبي لبيت المقدس، أواخر القرن الخامس الهجري، (492هـ )، والمقتلة الوحشية التي أوقعها الصليبيون في المسلمين.

وكلما ذكرنا الاجتياح التتري لبغداد وما سبقها وما تلاها من حواضر الإسلام، ومبلغ التقتيل والتدمير والإفساد الذي أحدثه جيش هولاكو في بغداد وحران والمَوصل وحلب ودمشق، وغيرها من مدن العراق والشام، وذلك في أواسط القرن السابع الهجري، (650هـ) وما بعدها.

وكلما ذكرنا الأندلس، فردوس الإسلام المفقود، ومحاكمَ التفتيش الصليبية السيئة الذكر، تلك المحاكم التي سحقت أمة بأكملها، ومحتها وغيبتها عن أرض الأندلس، ألغوا كلمة (المسلمين)، وسموهم (الموريسكوس)، وألزموا كل من بقي من المسلمين بالتنصُّر، بل وبتغيير أسمائهم الإسلامية، وهجر لغتهم العربية، تحت طائلة التقتيل والتهجير والتعذيب الرهيب، الذي من أشهر صوره أنَّ من اكتشفوه مسلمًا أحرقوه حيًا، كان ذلك في القرن العاشر الهجري، حوالي: (1500) للميلاد.[[3]](#footnote-4)

وكذلك كلما ذكرنا البطش الروسي القيصري بالمسلمين، وبعده البطش الشيوعي البلشفي، الذي شهده القرن الماضي، والذي حاول بالحديد والنار والدم والهدم، استئصال الإسلام من دُوَلٍ بأكملها، وهي دُوَل ما يُعرف بالاتحاد السوفييتي السابق، التي أُزهِقت فيها أرواح الملايين من رجالها ونسائها، وشبابها وشيبها، من أجل إخضاعهم لاستعماره، وحملهم على إلحاده.

أجل، إن الكيد الذي تـُكاده أمة الإسلام اليوم، والنـَّيل الذي يُنال منها، ليس أثقل وأعظم ما مرَّ بها على الإطلاق، ولكنه من أثقله بلاءً وأبشعه ظلمًا، وأعظمه أثرًا، نظرًا لفاعلية السلاح الحديث الذي أعْـتدَه لها أعداؤها، ونظرًا لاتساع أذى ذلك السلاح وتنامي ضرره حالاً ومآلاً.

فكيف إذا أضيف إلى ذلك خِذلان الأمة من قبل أبنائها، وهي في هذا الموقف الحرج ؟!!.

وذلك أننا نجد في أولئك الأبناء من ينظر إلى مصائب الأمة ورزاياها الثقال نظر المتفرج، أو المراقب المحايد تمام الحياد، الذي يتحدث عن الظلم والبطش الذي يقع على أهل ملته، أو المواجهة التي تخوضها أمته، وكأنها مواجهة بين ملتين في أقصى الأرض، أو على كوكب آخر غير الأرض، وكأن الإسلام ليس ملته، وكأن المسلمين ليسوا أمته، وكأن داره وماله وأرضه وعرضه وأهله ونفسه، في حصن حصين من أن يكونوا من وقود هذه المواجهة، أو من ضحايا تلك الفتنة، فهو مقيم على لهوه وغفلته ومنكراته، لا تتحرك منه شعرة من رحمة، ولا شعور إلى نصرة، ولا عزيمة على إنابة، ولا همة إلى خدمة ولو بكلمة أو دعاء.

وقد تـَحمد لهؤلاء حيادهم وغفلتهم وحالهم - على نكارته - إذا ما قارنتهم بفريق آخر من أبناء الأمة، ممن تنكروا لأمتهم، وقلبوا لها ظهر المِجَنّ، وجردوا من أنفسهم ألسنة تنطق بكل ما يريد أعداء الأمة أن يقولوه، ومعاولَ تهدم في الأمة كل ما يريد الكائدون أن يهدموه.

وإنك لتعرفهم في لحن القول، بل في صريح القول وفصيحه، الذي تراه وتسمعه في الحوارات والمناظرات والتصريحات، أو تقرؤه في المقالات والتعليقات والبيانات، حيث لا تكاد تصدق نفسك وأنت ترى وتسمع التصويب الصريح لعدوان الكافرين على الأمة، والتحليل السياسي الإيجابي لصالح ظلم الظالمين وإجرام المجرمين، والتخطئة الصريحة والقبيحة والمفضوحة، لدفاع المدافعين، وذود الذائدين، وجهاد المجاهدين من أبناء هذه الأمة.

إن ذلك مما يزيد في المأساة، ويضاعف وقع البلاء وحجمه.

ومن أجل أن يكون كل فرد في هذه الأمة مكسبًا لها لا عبئاً عليها، ومن أجل أن يكون كل منا سلاحًا بيد أمته لا معولاً بيد أعدائها في أزمان الزلازل والمصائب والفتن، فإننا نتناول، مستعينين بالله، بيان موقف المسلم من رزايا الأمة ومن الفتن المدلهمة التي يرقق بعضها بعضاً.

نحاول أن نجيب فيه من يتساءل عما ينبغي عليه في مثل هذه الأحوال والمُلِمّات، وذلك بغية أن يكون المسلم في موقفٍ عدلٍ، منضبط بالشرع، متـَّزن بين الإفراط والتفريط ، لا يجنح تفريطاً فيضيع حقوق الله ويخذل الأمة ويكون من أسباب استجلاب سخط الله، ولا يجنح إفراطاً فيكون ضحية اندفاع متهور، أو حماس غير منضبط ، فيـَلِج أبوابًا من الباطل بدعوى نصرة الحق، ويخالف مقتضى الدين بدعوى الحرص على الدين.

وقد جاء هذا البحث في تمهيد و فصلين وخاتمة، وقد اندرج تحت كلٍ من الفصلين مباحث وعناوين فرعية، بحسب ما يقتضيه المقام.

والله أسأل أن يرزقني في ذلك الإخلاص والسداد، وأن ينفعني به والمسلمين، وأن يَعُدَّه من عُدَّتي ليوم الدين.

والحمد لله رب العالمين.

إبراهيم يوسف منصور

**التمهيد**

**نبوءة ونصيحة:**

جاءت عن النبي صلى الله عليه وسلم، أحاديث كثيرة، يذكر فيها ما يكون في الأمة من الفتن في مستقبل الزمان، وقد اهتم بهذا الصنف من الحديث، المحدثون وغيرهم من علماء الأمة، وذلك لِما تحمله هذه الأحاديث من هدي سديد وتوجيه رشيد لما يجب أن يكون عليه المسلم إذا عصف البلاء أو هاجت الفتنة، ولِما في هذه الأحاديث من معالم النبوة ودلائلها، وذلك أن الوقائع والأحداث ما تزال تقع مطابقة لما سبق به الخبر النبوي، شاهدة له صلى الله عليه وسلم بما شهد له ربه: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى (4)} [النجم]

ومن مظاهر عناية العلماء بأحاديث الفتن، أن جُلّ المصنفين في الحديث، الذين رَتـَّبوا الأحاديث على أبواب العلم، عقدوا أبوابًا خاصة في مصنفاتهم لأحاديث الفتن، كما هو صنيع البخاري رحمه الله، الذي جعل الكتاب الثاني والتسعين من كتب الجامع الصحيح، البالغة سبعة وتسعين كتابًا، بعنوان: كتاب الفتن، ثم عقد تحت هذا الكتاب ثمانية وعشرين بابًا، اشتملت تلك الأبواب على أكثر من مائة حديث عن مختلف الفتن التي تكون بين عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبين الساعة، وآخرها فتنة يأجوج ومأجوج .

وعلى منوال البخاري نسج أصحاب الصحاح والسنن وغيرهم، فتجد الأبواب الخاصة بأحاديث الفتن عند الترمذي وأبي داود وابن ماجه، والبغوي في شرح السنة، والحاكم في المستدرك، رحمهم الله جميعًا. وكذلك صنع النووي رحمه الله تعالى في شرحه لصحيح مسلم، حيث وضع عناوين الكتب والأبواب للصحيح، وجعل الكتاب الثاني والخمسين من كتب صحيح مسلم بعنوان: (كتاب الفتن وأشراط الساعة) لأن المعلوم أنّ صاحب الصحيح مسلم بن الحجاج رحمه الله، وإن كان قد جعل الأحاديث مرتبة على أبواب العلم، فإنه لم يذكر شيئا من أسماء الكتب أو تراجم الأبواب.

ولسنا بصدد استعراض أحاديث الفتن التي حوتها كتب الصحاح والسنن، ولكننا نكتفي بحديث وأحد يشير إلى ما نحن بصدده، على سبيل التمثيل والاعتبار.

روى مسلم في صحيحه، بسنده إلى التابعي الثقة: عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة قال: دخلت المسجد، فإذا عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- جالس في ظل الكعبة والناس مجتمعون عليه، فأتيتهم فجلست إليه.

فقال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر، فنزلنا منزلاً.

فمِنا مَن يُصلح خباءه، ومنا من ينتضل[[4]](#footnote-5)، ومنا من هو في جَشره[[5]](#footnote-6)، إذ نادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم: الصلاة جامعة. فاجتمعنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ( إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإنَّ أمتكم هذه جُعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها، وتجيء فتنة فيرقق بعضها بعضًا، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مُهلكتي. ثم تنكشف. وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه هَذه. فمن أحَبَّ أنْ يُزحزح عن النار ويُدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأتِ إلى الناس الذي يُحِب أن يُؤتى إليه. ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر ). فدنوت منه فقلت: أنشدك الله آنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فأهوى إلى أذنيه وقلبه بيديه وقال: سمعته أذناي ووعاه قلبي [[6]](#footnote-7).

قلت في نفسي، وأنا أقرأ في هذا الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: (وتجيء فتنة فيرقق بعضها بعضًا، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مُهلكتي. ثم تنكشف. وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه هذه.)، قلت في نفسي: سبحان من عَلمَك يا رسول الله ما لم تكن تعلم، وأطلعك على ما شاء من غيبه.

وكأنه صلى الله عليه وسلم، ينظر إلى ما وراء أسجاف الغيب وحجبه، ليصف حالنا اليوم، حال الأمة التي تُطحن برحى البلاء طحناً، وترزح تحت كابوس الفتن المتتابعات التي يرقق بعضها بعضاً، كما حدَّث الصادق المصدوق، صلى الله عليه وسلم.

ومن معاني قوله: (فيرقق بعضها بعضاً): أي يصيِّر بعضها بعضاً رقيقاً، أي خفيفاً.

بمعنى أن الفتنة التالية لِعِظمها تجعل الأولى خفيفة بالنسبة لما بعدها، وإن كانت في ذاتها ثقيلة.

أجلْ، إن مما يستلفت السامع والناظر، والقائم والقاعد، والعالم والجاهل والصغير والكبير، ما ينزل بهذه الأمة من المصائب، وما يتهددها من البلاء الثقيل الهائل الذي لم ينزل بعد، وما يتوالى فيها من الفتن التي تجعل الحليم حيران.

وهي فتنٌ تتمثل في ذروتها، في ذلكم البطش الكفري العسكري الشرس، الذي ما يزال يحشد كِبَره وكِبْره، وخيله وخُيلائه، ثم يضرب هنا وهناك في أمة الإسلام، بلا ذرة من رحمة ولا بقية من إنسانية، من فلسطين إلى بلاد الأفغان، ومن الشيشان إلى الصومال، ومن البوسنة إلى كشمير، ومن العراق إلى لبنان، إلى غير ذلك من بلدان الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها.

ولو استوقفت اليوم من أبناء المسلين، صبيًا يافعًا، أو شيخاً ثمانينيًا، أو شابًا أو كهلا، وسألت كلاً منهم عما عايشه بنفسه، خلال عمره الوجيز أو المديد، من المصائب المزلزلة، والمذابح المروعة التي أثخنت في المسلمين لأنهم مسلمون، لوجدت أنَّ كلاً منهم قد عاصر وأدرك من المجازر ما يشيب له الصغار ويَصْعق له الكبار، ناهيك عما لم يدركوه مما أدركه آباؤهم وأجدادهم وأسلافهم، أو ما سيدركونه في مقتبل أيامهم، أو سيدركه أولادهم وأحفادهم.

أجل إنه لمن علامات النبوة، أن تجد خبر هذه المآسي والبلايا، في ذلك النص النبوي الصحيح: (وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها).

وإزاء هذا البلاء الشديد القائم، والأشد القادم، لا بد للمسلم من موقف، لا بد للمسلم الجاد أن يواجه نفسه بهذا السؤال: ما الموقف الواجب عليَّ في هذه الفتنة، أو تلك المصيبة، ليكون إسهامًا مني في نصرة الأمة ودرء الضرر عنها؟

وقد أرشدنا النبي صلى الله عليه وسلم، في هذا الحديث إلى الغاية الأسمى التي يجب على المسلم أن يجعلها نصب عينيه، يسعى إليها من خلال أي موقف يتخذه إبان الفتنة، قولياً، أو قلبياً، أو عملياً، ألا وهي النجاة في الآخرة، أيَّاً كانت التكلفة.

وذلك في قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث المتقدم: (فمن أحَبَّ أنْ يُزحزح عن النار ويُدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأتِ إلى الناس الذي يُحِب أن يُؤتى إليه.....) الحديث.

وبناء على هذا الحديث ونحوه من النصوص والتوجيهات الشرعية، فإننا نحاول إيضاح **عناصر الموقف الإيجابي** الواجب على المسلم اتخاذه عندما تجتاح الأمة المصائب أو تحتدم الفتن، سعياً إلى تحقيق تلك الغاية العظيمة.

وذلك عبر الفصلين الآتيين:

**الفصل الأول: التنظير.** وفيه ثلاثة مباحث.

**المبحث الأول: تحصين الدين من شظايا الفتن.**

على المسلم أن لا يَغفـُل، عند نزول البلاء وموج الفتن، عن الهدف الذي يجب أن يبقى ماثلاً بين عينيه، ألا وهو سلامة الدين وسعادة الآخرة.

وذلك لأنه قد يعرض للمسلم في ثنايا تلك الفتن وغمرة ذلك البلاء، صنوف من الرغبة والرهبة، والخوف والطمع، والأمن والفزع، والحب والحقد، والولاء لقوم والبراء من آخرين.

فلا يدَعَنّ شيئاً من ذلك يزحزحه عن غايته العظمى وهدفه الأسمى، ألا وهو سلامة الدين وسعادة الآخرة.

قد يجد المسلم نفسه وقت الفتنة أو البلاء في حال يستطيع فيه أن يجازف بمال غيره ليحمي ماله، أو أن يُشيط بدم غيره ليحفظ دمه.

قد يجد المسلم نفسه في غمرة الحروب والفتن، وهو يستطيع أن يُثري ويضاعف ثروته، على حساب قيم دينه ومصالح أمته، ودموع ودماء أبناء قومه وملته، كما هو معلوم في مصطلح (أثرياء الحرب).

قد يجد المسلم نفسه، في اختلاط الأمور واضطراب الأمن، وهو يستطيع أن يظلم من لم يكن يستطيع ظلمه من قبل، وأن ينال ممن لم يكن يستطيع النيل منه من قبل.

قد يجد نفسه - وبمقتضى الفتنة واستحقاقاتها - مدعواً إلى موالاة ظالم، أو إلى خذل من أمر الحق بمناصرته، أو إلى مناصرة جماعة أو عَصَبَة أو حزب على باطل، أو إلى تقديم من أخره الله، أو تزكية من جرحه الشرع، أو مدح من حقه الذم، أو نحو ذلك من الأمور المعكوسة والمنكوسة، وذلك بباعث حمية الجاهلية والعصبية القبلية أو القومية أو الإقليمية أو الفكرية أو المذهبية.

تلك الحمية والعصبية التي كثيراً ما تنبعث جذعة في الفتن.

أو بباعث هيبة من ذي سلطان، فيداهنه ويصانعه على حساب دينه، أو بباعث مطمع يراه متاحاً في الفتن كما لم يكن متاحاً من قبل، فيداعب ذلك المطمع خياله، وتشرئب إليه نفسه ويسيل له لعابه، وليس بينه وبين أن يشبع نهمه ويحقق حلمه إلا أن يتجاوز على شيء من الحق، ويتعدى على شيء من حدود الله، والتأويلات والتعليلات جاهزة من تسويل النفس ووساوس الشيطان، فيبيع المسلم دينه بعرض من الدنيا.

وقد يبدو له بعد ذلك المطمع مطمع آخر أو مطامع، وكلها تتقاضى من دينه أضعاف ما يصيب فيها من الدنيا، فيرق دينه ويضعف لصالح دنيا ذات غرور لا تجدي عنه يوم الفزع الأكبر شيئاً.

فليتق المسلم ربه في كل ذلك، وليجعل همه وديدنه أبدًا سلامة دينه، فإنه لا يدري، فقد يكون هو نفسه من ضحايا تلك الفتنة، أو وقود هاتيك الحرب، ولن يغنيه بعد ذلك كل المطامع التي نالها، والأهواء التي اتبعها، بل يكون كل ذلك وبالاً عليه يوم لا يكون له من دار إلا الجنة أو النار.

وليكن لنا جميعًا عبرة بصاحب الشملة، الذي جازف بآخرته من أجل شملةٍ أخذها من غنائم خيبر قبل قسمتها.

وجاء خبره في الصحيحين، واللفظ للبخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: افتتحنا خيبر، ولم نغنم ذهبًا أو فضة، إنما غنمنا البقر والإبل والمتاع والحوائط [[7]](#footnote-8)، ثم انصرفنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وادي القرى، ومعه عبدٌ له يقال له: مِدْعم. أهداه له أحد بني الضِبَاب، فبينما هو يحط رحل رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ جاءه سهم عائر[[8]](#footnote-9)، حتى أصاب ذلك العبد، فقال الناس: هنيئا له الشهادة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ( بل والذي نفسي بيده، إن الشملة التي أصابها يوم خيبر من المغانم، لم تصبها المقاسم، لتشتعل عليه نارًا). فجاء رجل، حين سمع ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم، بشِراك[[9]](#footnote-10) أو بشِراكين، فقال: هذا شيء كنت أصبته. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ( شِراك - أو شِراكان - من نار).[[10]](#footnote-11)

ومما وقع من هذا القبيل، في غزوة خيبر أيضاً، ما جاء في صحيح مسلم، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم خيبر، أقبل نفر من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: فلان شهيد. فلان شهيد. حتى مروا على رجل فقالوا: فلان شهيد. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

( كلاّ، إني رأيته في النار في بُردة غلها، أو عباءة).[[11]](#footnote-12)

فانظر كيف استغل كل من الرجلين اختلاط الأمور في المعركة، في حيازة تلك الشملة، أو تلك العباءة، سحتاً بغير حق، ثم لم يجدا من فسحة الأجل ما ينتفعان فيه بذلك المتاع التافه، الذي حرَما نفسيهما بسببه عظيم الأجر، وهو أجر الشهادة، واكتسبا عظيم الوزر، وهو الوعيد بالنار.

فما أحرانا أن نجعل الأولوية دائمًا- وفي النوازل والفتن على وجه الخصوص- أن نجعل الأولوية لسلامة الدين ونجاة الآخرة !

وأن لا نغفـُل ولا نذهَل عن ذلك تحت سلطان طمع ولا فزع، ولا حب ولا بغض، فإن هذه الأحوال كثيرًا ما تغزو الناس، فتزين لهم الجرأة على ما

لا يحل، وتساومهم على دينهم. خصوصًا عند اضطراب الأمور وعربدة الفتن.

وكثيرون هم الذين يَضعُفون أمام تلك المساومات، وهؤلاء هم الضحايا الحقيقيون للفتن، الذين لا عزاء لهم على مصابهم، وذلك لأن المصيبة في غير الدين لها عزاء بالصبر واحتساب الأجر، أما المصيبة في الدين فلا عزاء لها .

وانظر إلى هذا المعنى في حديث مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ( بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافرًا، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافرًا، يبيع دينه بِِعَرَضٍ من الدنيا).[[12]](#footnote-13)

**المبحث الثاني: استشعار هَمّ الأمة.**

يتأكد على المسلم، وفي هذه الأزمان والأحوال التي تعيشها الأمة على وجه الخصوص، والتي تتوالى عليها فيها المصائب، وتكثر في حصونها الثغرات، وينخر جسمها السقم، ويسري في مفاصلها الوهن، يتأكد على المسلم أن يستشعر بين جنبيه همَّ أمته، وحرَج ما تلاقيه، فإن وجدان هذا الهمّ من مظاهر تحقيق الوحدة الشعورية بين المسلمين، وهي الوحدة التي دعا إليها النبي صلى الله عليه وسلم، وشدد عليها في أكثر من حديث.

ففي الصحيحين، واللفظ للبخاري، عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: ( لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه )[[13]](#footnote-14)

وفي الصحيحين، واللفظ لمسلم، عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ( مَثـَل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم، مَثـَل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى).[[14]](#footnote-15)

هذه هي الوحدة الشعورية والعاطفية المطلوب تحقيقها بين المسلمين، والتي تكاد تتلاشى وتضمحل كما تضمحل سائر صور الوحدة في حياتنا.

لقد أصبح المسلم يرى دماء إخوانه وأشلاءهم مُزعًا بأيدي أعدائهم من كل ملة ودين، ثم لا يمنعه ذلك عن شيء من برنامجه الترفيهي اليومي، ولا عن غفلته المطبقة المعتادة في مشاهدة المنكر أو سماعه، وقد يضحك بملء فكيه مع ذلك المسلسل، أو ذياك المهرّج، ثم يأكل ملء بطنه، وينام ملء جفنه، وكأن المقتلة التي رآها، وما يزال يراها، كأنها ضرب من التمثيل الخادع، أو كأنها من دماء وأشلاء الظلمة المعتدين.

فأين هذا الانفصال الشعوري المقيت، من تلك الصورة المثالية الرائعة التي يرسمها النبي صلى الله عليه وسلم لوحدة الأمة؟ ويمثلها في مشاعرها وتناصرها، بالجسد الواحد، يعتلُّ كله لاعتلال بعضه.

ويمثلها في حديث آخر بالبنيان المتماسك، كما جاء في الصحيحين، واللفظ للبخاري، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ( المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وشبّك بين أصابعه).[[15]](#footnote-16)

إن الخطر الذي يتهدد الأمة كبير وخطير بكل المقاييس، ولكنك لا تكاد ترى انعكاسًا جادًا لذلك الخطر، أو شعورًا ذا بالٍ بأدنى قدر من الهمّ نحوه، في شيءٍ مما تقرؤه أو تسمعه أو تراه.

وكأن شيئاً لم يكن، أو كأن شيئاً لن يكون.

تذْكُرُ بعض كتب الأدب، أن الخليفة العباسي المعتصم، (محمد بن هارون الرشيد)، بَلغـَتـْه استغاثة امرأة مسلمة كانت أسيرة عند بعض أمراء الروم، فبادر إلى نجدتها بجيش عظيم، وذلك في سنة ثلاث وعشرين ومائتين من الهجرة.

قال في كتاب (المستطرف ): وكان سببُ فتح المعتصم عَمُّورية، أنَّ امرأة من الثغر سُبيت، نادت وامحمداه، وامعتصِماه.

فبلغه الخبر، فركب لوقته، وتبعه الجيش. فلما فتحها قال لبيك أيتها المنادية.[[16]](#footnote-17)

ومن أعجب ما وقع في تاريخ أمتنا من مظاهر استشعار المسلم همَّ أخيه بصدق عميق، وترجمة ذلك الشعور الصادق المؤرِّق إلى مؤازرة عملية ومناصرة عسكرية، ما كان من مؤازرة الملك العادل محمود نور الدين بن زنكي في الشام، للملك الناصر صلاح الدين الأيوبي في مصر. وذلك في القرن السادس الهجري، إبان انتشار الممالك الصليبية في بلاد الشام.

وقد أورده الحافظ ابن كثير في تاريخه، في أحداث سنة خمس وستين وخمسمائة، فقال ما نصه:

في صفر منها، حاصرت الفرنج مدينة دمياط من بلاد مصر خمسين يومًا، بحيث ضيقوا على أهلها وقتلوا أمما كثيرة. جاؤوا إليها من البر والبحر رجاء أن يملكوا الديار المصرية، وخوفاً من استيلاء المسلمين على القدس. فكتب صلاح الدين إلى نور الدين يستنجده عليهم، ويطلب منه أن يرسل إليه بإمداد من الجيوش، فإنه إن خرج من مصر[[17]](#footnote-18) خلفه أهلها بسوء، وإن قعد عن الفرنج أخذوا دمياط وجعلوها معقلا لهم، يتقوَّوْن بها على أخذ مصر. فأرسل إليه نور الدين ببعوث كثيرة يتبع بعضها بعضاً.

ثم إن نور الدين اغتنم غيبة الفرنج عن بلدانهم، فصمد إليهم في جيوش كثيرة، فجاس خلال ديارهم، وغنم من أموالهم، وقتل وسبى شيئاً كثيرًا.... إلى أن قال الحافظ ابن كثير: حتى انفصلت الفرنج عن دمياط.

وأجلت الفرنج عن دمياط لأنه بلغهم أن نور الدين قد غزا بلادهم، وقتل خلقاً من رجالهم، وسبى كثيرًا من نسائهم وأطفالهم، وغنم من أموالهم. فجزاه الله عن المسلمين خيرًا. ....

إلى أن قال الحافظ ابن كثير: ولما انجلت الفرنج عن دمياط، فرح نور الدين فرحًا شديدا وأنشد الشعراء كل منهم في ذلك قصيدًا.

وقد كان الملك نور الدين شديد الاهتمام قوي الاغتمام بذلك، حتى قرأ عليه بعض طلبة الحديث جزءًا في ذلك، فيه حديث مسلسل بالتبسم، فطلب منه أن يبتسم ليصل التسلسل، فامتنع من ذلك، وقال: إني لأستحي من الله أن يراني مبتسما والمسلمون يحاصرهم الفرنج بثغر دمياط.

ثم قال الحافظ ابن كثير: وقد ذكر الشيخ أبو شامة، أن إمام مسجد أبي الدرداء بالقلعة المنصورة، رأى في تلك الليلة التي أجلى فيها الفرنج عن دمياط، رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول: سَلِّمْ على نور الدين، وبشره بأن الفرنج قد رحلوا عن دمياط. فقلت: يا رسول الله، بأي علامة؟ فقال: بعلامة ما سجد يوم تل حارم[[18]](#footnote-19)، وقال في سجوده: اللهم انصر دينك، ومن هو محمود الكلب؟! فلما صلى نور الدين عنده الصبح، بشره بذلك وأخبره بالعلامة. فلما جاء إلى عند ذكر: ( من هو محمود الكلب ) انقبض من قول ذلك. فقال له نور الدين: قل ما أمرك به رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: صدقت. وبكى نور الدين تصديقاً وفرحاً بذلك. ثم كشفوا فإذا الأمر كما أخبر في المنام.[[19]](#footnote-20)

فحري بكل مسلم اليوم أن يهتم لِهَمِّ أمته، بحيث يؤرقه ويكدره ذلك الهم.

والمرء إذا اهتم للأمر واكترث به، فإنه يبحث ويتدبر في عمل الممكن مما يدفع الله به ذلك الغم ويزيل أسبابه.

فما هذا الممكن الذي يفعله المسلم عندما يؤرقه همّ الأمة؟

هذا السؤال يقودنا إلى ثالث المباحث في هذا الفصل، فنقول:

**المبحث الثالث: التفكر في أسباب البلاء**.

وهذا يمثل الخطوة الأولى والجادة في العلاج والإصلاح.

تـُرى، فما سبب هذا البلاء الذي تسفك فيه دماء الأبرياء من أبناء ملّتنا، وينالنا، أو ينال إخوة لنا في كل أرض الله، الترويع والتجويع والتهجير والاضطهاد؟؟ !!

وعندما تتفكر أخِي، وترى أمامك أسبابًا ماديةً مباشرةً مزعومة، مما يسمونه إرهابًا، أو أسلحة دمار شامل،أو يتذرعون بما يسمونه: شرعة دولية، أو يسمونه: إرادة المجتمع الدولي.

أو عندما ترى في منظارك أسبابًا أخرى حقيقية غير مزعومة، من طمع دولي بثروات المسلمين، وتصميم كفري مستمر على إضعاف المسلمين بالضربات الوقائية، بحيث لا تجد الأمة نفسها في عافية تمكنها من المبادرة بتفعيل الدين، والنهوض بالدعوة، وإسعاد البشرية بهذه العقيدة الصافية والشريعة السمحة.

أقول: إذا قابَلتـْك في جلسة عصف ذهني، تلك الأسباب المزعومة المكذوبة، أو هذه الأسباب الحقيقية الملموسة، فلا يُذهلنـَّك ذلك عما وراء هذه وتلك من معان وأسباب ودلالات إيمانية هي ضالة المؤمن، وعندها يَحط الرحال، ويلقي عصا التسيار، حتى إذا أصلحها وأحكمها، تجاوزها إلى ما بعدها.

وهلم فلنتناول ذلك عبر الحقائق الآتية:

**الحقيقة الأولى:** **البلايا بالخطايا.**

إن الموجبات والأسباب التي ينشأ عنها كل ما نراه، وكل ما لم نره بعد من البلاء والهوان والتقتيل والفُرقة والفشل وذهاب الريح، إنما هي ذنوب المسلمين ومعاصيهم، وجرأتهم على حدود ربهم وأحكام دينهم على نحو أوجب لهم أن يُمتحَـنوا بذلك البلاء لعلهم يرجعون.

إنّ من المعلوم مثلاً، أنّ كسوف الشمس أو خسوف القمر أو احتباس المطر أو زلزلة الأرض أو انفجار البراكين، أو غير ذلك من الجوائح والآفات السماوية أو الأرضية، لها أسبابها العلمية المادية، الفلكية أو الجيولوجية أو الفيزيائية، أو نحو ذلك مما يعرفه أهل الاختصاص.

ولكن تلك الأسباب المعروفة لا يصح أن تحجب نظر المؤمن عمّا وراءها من معانٍ إيمانية، وإشارات إلى تذكير الله عباده بقدرته سبحانه على أخذهم بذنوبهم إن لم ينزعوا عما هم فيه من غفلة وغي، ومن محادّةٍ لله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

ولهذا المعنى تتأكد التوبة والدعاء عند نزول البلاء، ومن أجل ذلك شرعت صلاة الكسوف، وصلاة الاستسقاء، وفيهما ما فيهما من الدعاء والضراعة وتخويف الناس من ذنوبهم، ودعوتهم إلى التوبة منها، ليكشف الله الغمة ويُسَلِّم الأمة.

وما أجل ما قاله العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، في استسقائه، حين استسقى به عمر رضي الله عنه، فإنه قال: [ اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يُرفع إلا بتوبة، وقد توجه القوم بي إليك لمكاني من نبيك، وهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث]. فأرخت السماء مثل الجبال، حتى أخصبت الأرض وعاش الناس.[[20]](#footnote-21)

وفي الصحيحين، واللفظ لمسلم، عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، في قصة الكسوف، أنه صلى الله عليه وسلم، لمّا فرغ من صلاة الكسوف،

خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ( إن الشمس والقمر من آيات الله، وإنهما لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتموهما فكبروا وادعوا الله وصلوا وتصدقوا، يا أمة محمد، إنْ من أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد، والله لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا، ألا هل بلغت ؟)[[21]](#footnote-22)

وهكذا الشأن فيما نحن بصدده من بلاء تسلط الأعداء على أمتنا، وعبثهم بمصائرنا، واستخفافهم بديننا، واعتدائهم على أوطاننا وأرواحنا وأعراضنا وأموالنا، لا بد- ومن منطق الإيمان- لا بد من الربط بين ذلك وبين التفريط

في جنب الله، والجرأة على محارم الله سبحانه.

والحذرَ كل الحذرِ من تجاهل هذا الربط أو المواربة عنه، فإن ذلك التجاهل سيئة أخرى تستوجب المزيد من سخط الله وبلائه العقابي، وهو أيضاً مخادعة للنفس، الخادعُ فيها مخدوع، لأنه لا يضر إلا نفسه.

وإن الإيمان الذي نعتز بالانتماء إليه، ليدلنا على هذا الربط بين البلاء الذي ينزل بالأمة، وبين تضييع أوامر الله وانتهاك حرماته سبحانه.

وهو كثير منثور في ثنايا آيات القرآن ونصوص السنة بما لا محيد لمنصفٍ عن اعتقاده والاعتداد به.

كلنا يقرأ ويسمع قول الله تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}. النَّحل (112)

البلاء بالجوع والخوف، ولكن بأي سبب؟ بما كانوا يصنعون.

وقد ذهب المفسرون إلى أن الإشارة في الآية إلى مكة البلد الأمين، وما نزل بأهلها من الجوع والخوف بسبب تكذيبهم للنبي صلى الله عليه وسلم، ومشاقتهم له.

ولكن العبرة بعموم اللفظ، فهي سنة الله تعالى في كل قرية تكفر بأنعم الله، أو تكذب رسله وتتعدى حدوده.

وذلك كما قال سبحانه في الأعراف: { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (96) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (97) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (98) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (99) أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (100)}

فانظر إلى هذا الربط الصريح في قوله: { أصبناهم بذنوبهم}.

روى أبو نعيم في الحلية بسند صحيح إلى التابعي الثقة جُبير بن نفير قال : لما فتحت قبرص، وفـُرِّق بين أهلها[[22]](#footnote-23) فبكى بعضهم إلى بعض، رأيت أبا الدرداء – رضي الله عنه - جالسا وحده يبكي. فقلت: يا أبا الدرداء ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟! قال: ويحك يا جُبير، ما أهون الخلق على الله إذا هم تركوا أمره! بينا هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك، تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى.[[23]](#footnote-24)

أجل، إنّ البلايا بالخطايا، وإذا فهم المسلمون هذه السنة، وأدركوا هذا الربط بين البلاء وبين المعصية، وأن البلاء من صور الانتقام الإلهي من فساد العباد وإفسادهم، كان ذلك الإدراكُ الخطوة الأولى الصحيحة التي تستتبع التصحيح والإنابة، كما قال تعالى:

{ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} الروم (41) .

**الحقيقة الثانية: الابتلاء بالسراء بعد الضراء.**

وهذه حقيقة لا بد من اجتلائها، لأن الغفلة عنها سبيل الهلكة، وهي أنّ المصيبة الأكبر والهلكة الأخوف عندما لا يكترث المسلمون بهذا الربط بين البلاء وبين المعاصي، ولا يُعْنـَون بذلك السبب الذي جرّ عليهم ما جرّ من ويلات، ويَعْمَهون في طغيانهم وغيّهم، فلا تجدي فيهم فتنة الضراء والمكروه شيئاً.

والمخوف عندئذ أن يفتح الله عليهم أبواب نِعَمِه، على سبيل الابتلاء بعد الضراء بالسراء التي توجب عليهم الإقبال على الله والإنابة إليه لِمَا يغذوهم من نعمه، لتحق عليهم المؤاخذة وتقوم عليهم الحجة بكلا صنفي الفتنة، فتنة الشر وفتنة الخير، كما قال الله تعالى عن بني إسرائيل:

{ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}. الأعراف (168)

وكما قال سبحانه لأمة محمد صلى الله عليه وسلم:

{ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}. الأنبياء (35).

فإذا ابتلى الله تعالى عباده الشاردين عن الجادة، بالشر والمصائب وصنوف الضراء، فلم يحملهم ذلك على شيءٍ من إنابة أو توبة يستدفعون بها البلاء، فإن من سنته سبحانه عندئذ أن يبتليهم بالصنف الآخر من البلاء، وهو بلاء الخير والنعمة والسعة، لعلهم إذ لم يستغفروا في الضراء، أن يشكروا على السراء والنعماء.

ولكن الغفلة إذا كانت مطبقة، لم يزدهم الإحسان إلا طغياناً وإعراضاً، بحيث يتوهمون في ذلك التبديل في الأحوال دليلاً على بطلان دعوى الربط بين المصائب وبين الذنوب، إذ لو كان الأمر كذلك برأيهم، لما أدركوا الرخاء والسعة وهم مقيمون على فجورهم ومعاصيهم.

وذلك من مكر الله بهم ليأخذهم على غرة، لأنهم لم يستغفروا عند الضراء ولم يشكروا عند السراء.

وقد حدثنا الله سبحانه عن سنته تلك في عباده، فقال سبحانه في الأعراف: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (94) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ}.[الأعراف:94، 95].

يعني أنهم يزعمون أن الضراء والشر الذي أصابهم لا صلة له بكفر ولا معصية، بدليل أنهم رأوا السراء بعد الضراء من غير أن يغيِّروا أو يستغفروا. فالسراء والضراء في نظرهم أحوال تتناوب على الناس كما تناوبت على آبائهم من قبلهم، ليس لها أي دلالة إيمانية.

فماذا كان عاقبة هذه الغفلة أو هذا التغافل والتجاهل لمكر الله وأليم أخذه ؟

كانت العاقبة: { فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ }. نعوذ بمعافاة الله من عقوبته، ونـُحذر أنفسنا وإخواننا وأمتنا من هذه السنة الإلهية المخوفة التي تأكد التحذير منها مرة أخرى في سورة الأنعام إذ يقول سبحانه: { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42) فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (43) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (45)}

**الحقيقة الثالثة: حفظ النعمة بحفظ الدين.**

من أحب أن يَحفظ نعمة حباه الله إياها، وأراد مع ذلك أن يفوز برضا مولاه سبحانه، فليحفظها بحفظ دينه والتوقي عن مساخط ربه، فإن الله سبحانه يقول في الأنفال: { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (53) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ **فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ** وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (54) }.

وقد قيل في شعر الحكمة:

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم

وحافظ عليها بتقوى الإله فإن الإله سريـع الـنـقـم.

وإذا أردت أن تعرف ماذا في المجتمع والأمة من المعاصي التي تذهب بالنعم وتأتي بالنقم، فاستمع إلى هذين الحديثين، على سبيل التمثيل لا الحصر.

الحديث الأول: روى أبو داود في سننه، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ( إذا تبايعتم بالعِـينة[[24]](#footnote-25)، وأخذتم أذناب البقر[[25]](#footnote-26)، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم).[[26]](#footnote-27)

الحديث الثاني: رواه ابن ماجه في سننه - وهو حسن بشواهده - عن ابن عمر رضي الله عنهما قال:

أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ( يا معشر المهاجرين، خمسٌ إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن، لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يُعلِنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم يَنقصوا المكيال والميزان إلا أخِذوا بالسنينَ وشدة المؤونة وجَور السلطان عليهم، ولم يَمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنِعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يُمطروا، ولم يَنقضوا عهد الله وعهد رسوله- صلى الله عليه وسلم- إلا سلط الله عليهم عدوًا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا[[27]](#footnote-28) مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم)[[28]](#footnote-29)

فهل وقفنا الآن على سر هذه المصائب التي تجتاح الأمة هنا وهناك، بين حين وحين؟!

لئن وقفنا يقيناً على هذا السر، فلتبدوَنَّ لنا من ثناياه بذور خير وملامح رحمة.

فأما بذور الخير، فإن الله تعالى جعل تلك المصائب علامة على مقته للمنكرات وصنوف الفجور التي وقعت في الأمة، فإذا أقلعت الأمة وأصلحت، بدَّل الله خوفها أمنا،ً وضيقها سعة، وهزيمتها نصرًا، وبلاءها عافية، كما قال سبحانه عن قوم يونس: { فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} [يونس : 98].

وأما ملامح الرحمة في هذا البلاء الذي يطحن الأمّة، فلأنه ليس جزاءً على كل ما كسب العباد، بل هو جزاء على بعضه أو على أقله، وهذا من رحمة الله وعظيم حلمه على عباده، ولقد امتن سبحانه، وله الحمد، بهذه الرحمة وذلك الحلم، فقال سبحانه في سورة الشورى: { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ(30) }

تُرى فكيف سيكون الأمر لو كانت المؤاخذة على كل ما كسبت أيدينا؟!

ونجد الجواب على ذلك في آيات من كتاب الله، منها في سورة الكهف: { وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلا (58)}

ومنها في سورة النحل:{ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ (61)}

ومنها في سورة فاطر: { وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا(45)}

**الحقيقة الرابعة: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام.**

إن الأمة قد تخلت عن معقد عزها ومناط كرامتها وفضلها، وهو أحكام دين الإسلام الذي رضيه الله لنا ديناً، وأتم الله علينا به النعمة، فنزعَت الأمة عن نفسها هذه النعمة، وأزالت عنها تلك المظلة الواقية، وأخرجت نفسها من حصن الله المنيع وقلعته الحصينة، ونزعت يدها من حبله المتين وعروته الوثقى، فعطلت أحكام الله وانتهكت حدوده، فهَوَت إلى حضيض الهاوية، وتراجعت إلى آخر الركب، حتى صارت أذل الأمم، وأهون الأمم على كل الأمم.

وهذا ظاهر للعيان، فلو قارنت بين أمة الإسلام وبين الذين قالوا إنا نصارى، لوجدت أمة المسلمين مقهورة أمامهم ذليلة لهم.

ولو قارنت بين أمة الإسلام وبين أمة اليهود الذين ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله، لوجدت أمة الإسلام مقهورة أمامهم ذليلة لهم.

ولو قارنت بين هذه الأمة الخاتِمة وبين أمم الملاحدة من دهريين أو شيوعيين أو لا دينيين، لوجدتها مقهورة أمامهم، مأكولة مشروبة بأيديهم.

بل حتى لو قارنت بين أمة الإسلام وبين أمم الوثنية المعاصرة من عبدة النار أو عبدة الأبقار، أو ما هو أهونُ وأدونُ من المعبودات المزعومة، لوجدت أمة الإسلام مقهورة أيضاً حتى أمام أولئك الضُلاّل السفهاء المتوحشين.

وما أكثر ما أهان هؤلاء وهؤلاء للمسلمين من كرامة، وأذلوا لهم من راية، ودنـَّسوا لهم من عرض! وما أكثر ما ولغت سيوفهم وحرابهم في دماء المسلمين!.

وإنه لممَّا يؤرق المسلم الغيور ويؤلمه، أن يرى أمته مخفوضة بين الأمم على هذا النحو الذي يثير الإشفاق، اللهم إلا ما أعز الله به طائفة مباركة من هذه الأمة، من الذين أبْلـَوا، وما يزالون يُبلون بلاءً حسناً في سبيل الله، ولا يألون جهدًا في الإثخان في أعداء الله، فأظهرهم الله على قلتهم، وأعز بهم دينه، وأنالهم من عدوه وعدوهم نيلاً عظيمًا، فريقاً يَقتلون، ويُرهبون فريقاً، وكأني بتلك الطائفة هي من أرادهم، أو هي بعض من أرادهم النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الصحيحين، واللفظ لمسلم، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

( لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين، إلى يوم القيامة)[[29]](#footnote-30)

قال النووي رحمه الله، في شرحه على مسلم:

[ويحتمل أن هذه الطائفة مفرَّقة بين أنواع المؤمنين، منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدثون، ومنهم زهاد، وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض، وفى هذا الحديث معجزة ظاهرة، فان هذا الوصف ما زال بحمد الله تعالى من زمن النبي صلى الله عليه وسلم إلى الآن، ولا يزال حتى يأتي أمر الله المذكور في الحديث][[30]](#footnote-31).

أجل، في الأمة طائفة ظاهرة ولا بد، أمّا سوادها الأعظم وكثرتها الكاثرة، فهي كما نرى ونسمع، أمة كاليتيم المليء الضعيف، بين ظهراني قوم لؤماء أقوياء، كل يدعي عليه ولاية، أو يمارس عليه وصاية، أو يفرض عليه إتاوة، أو يمن عليه بحماية، أو يَحمله على منهج تفكير وطريقة حياة، واليتيم الضعيف لا يدري أيَّ هؤلاء يرضي، ولا بأيهم من أيهم يحتمي؟، وكلهم عدو ماكر غادر!.

وعندما فتشنا عن السر وراء هذه الحال المزرية التي تعيشها الأمة، وجدنا أن كل ذلك يعود في أصله إلى أن الأمة قد طرحت بنفسها عن نفسها رداء عزتها وأداة نصرتها، وتخلت عن معدن قوتها وصِمَام أمْنها، وهو الاستجابة لله فيما شرع من أحكام دينه، وهذه حقيقة تشهد لها النصوص القطعية والمسلَّمات التاريخية، طردًا وعكسًا.

وكلنا يقرأ في سورة الحج قوله تعالى: { وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (41)}

وقوله سبحانه في سورة النور: { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (55) }

ولا يخفى ما في الموضعين من الربط بين التمكين والنصر وبين إقامة الدين عقيدة وشريعة.

ثم إن من المسلَّمات التاريخية التي لا يختلف فيها مُنصفان، أن الفتح الإسلامي الهائل، في ذلك الزمن القياسي في وجازته، لم يكن مرده إلى تفوق عسكري على الروم، ولا تفوق مالي على الفرس، ولا تفوق عددي على القبط، ولا غيرهم من سائر القوى الدولية التي أخضعها المسلمون في ذلك الوقت، وإنما كان مرد ذلك أولاً وقبل كل شيءٍ، إلى حُسْن الأخذ بالدين، وذلك هو البوابة إلى النصر، كما رأينا في الآيات من سورتي الحج والنور.

فإن قال قائل: وهل يُغني حُسْن الأخذ بالدين عن القوة المادية؟! فالجواب: أن مِن حُسْن الأخذ بالدين، بل من واجباته الصريحة، إعدادَ المستطاع من القوة المادية بمختلِف فروعها.

كيف لا وهو أمر صريح القرآن في قوله تعالى: { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ}. [الأنفال : 60].

فإذا قصَّر المسلمون في إعداد القوة فهم في الحقيقة قد قصّروا في الدين، لأن إعداد القوة من أمر الدين.

وقد ثبت بالاستقراء التاريخي أن لا عزّ للمسلمين بشيءٍ من أسباب الدنيا وزينتها، ولو ملكوا منها أكثر مما ملك قارون، وأن عزهم ونصرهم ومجدهم في دينهم ولو كانوا أضيق أمم الأرض عيشاً.

ولقد مرّت بالمجاهدين الفاتحين المسلمين أحوال، كان الواحد منهم لا يجد من الطعام ما يملأ بطنه، ولا من الثياب أكثر مما يستر عورته، ولا من الظهر ما يتبلغ به إلى ميدان المعركة، بل ربما كانوا لا يجدون النعال التي يقون بها أقدامهم خشونة وأذى الأرض التي يجوبونها مجاهدين، ومع هذا فقد أحرزوا العز والتمكين بفضل حسن الأخذ بالدين.

ولما دُحِر المسلمون في الأندلس وطُردوا منها، كانوا قد بلغوا أوج القوة المالية والحضارة المادية والعمرانية في ذلك الوقت، ولكن ذلك لم يغن عنهم شيئاً لمَّا فرطوا في جنب الله، وآثروا منافع دنياهم على مبادئ دينهم ومرضاة ربهم سبحانه.

هذه هي الحقيقة التي قررها سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في الخبر الذي رواه الحاكم في المستدرك، وقال: صحيح على شرط الشيخين، بسنده إلى طارق بن شهاب، قال : خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الشام، ومعنا أبو عبيدة بن الجراح، فأتوا على مخاضة[[31]](#footnote-32)، وعمر على ناقة له، فنزل عنها و خلع خفيه فوضعهما على عاتقه، و أخذ بزمام ناقته فخاض بها المخاضة. فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين، أنت تفعل هذا؟ تخلع خفيك و تضعهما على عاتقك، و تأخذ بزمام ناقتك و تخوض بها المخاضة؟ ما يسرني أن أهل البلد استشرفوك.

فقال عمر: [ أوَّه، إن يقل[[32]](#footnote-33) ذا غيرُك أبا عبيدة جعلته نكالاً لأمة محمدٍ صلى الله عليه و سلم، إنا كنا أذل قوم، فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلبِ العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله.][[33]](#footnote-34)

**الفصل الثاني: الـتـغـيـيـر.**

إذا عرفنا الآن سبب هذا البلاء الداهم، والضر القائم والقادم الذي يتهدد أمة محمد صلى الله عليه وسلم، السبب الذي انجلى لنا في الربط بين المصائب والفتن التي تصيب الأمة، وبين الإعراض عن الله سبحانه، والزهادة في دينه، فما الخطوة التالية ؟ إنها التغيير، وهو العنصر الأهم في العناصر التي تشكِّل موقف المسلم من رزايا الأمة.

إذ لا يكفي أن يهتم المسلم ويغتم لأمته، ويُشخص الداء ويصف الدواء، ثم يقف عند ذلك، ولا يعمل على العلاج والتغيير.

وآليات التغيير متعددة متنوعة، إنْ كان على مستوى الفرد أو كان على مستوى الأمة، أو على حسب الميدان الذي يُراد فيه التغيير.

وبيان ذلك عبر المباحث الآتية:

**المبحث الأول: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.**

وهو من أهمها وأبلغها خطرًا وأثرًا، وهو واجب ديني وشرعة شريفة جعلها الله تعالى صِمام الأمان في المجتمع والأمة.

وحتى تحقق هذه الشرعة العظيمة حميد غاياتها، وتؤتي يانع ثمراتها فإننا نتناولها من خلال الوقفات الآتية:

**الوقفة الأولى: ابدأ بنفسك.**

ولا بد من التعريج على هذه القضية، والتحريج من مخالفتها وتجاوزها، ألا وهي أن يكون المسلم مُؤْتمِرًا بما يأمر به من المعروف، منتهيًا عمَّا ينهى عنه من المنكر.

فليبدأ كل منـّا بنفسه، ولينظر في أفعاله وأقواله ونيّاته وعاداته وتقلباته في الخلوة والجلوة والليل والنهار وسائر الأحوال، وليستدرك ما قصّر فيه من المعروف، وليتجنب ما قد يلابس أحواله من المنكر، فإن هذا له الأولوية الشرعية والمنطقية.

أما الأولوية الشرعية. فلأن الله تعالى قدّمه في سورة العصر فقال سبحانه: { إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ }، أي بدؤوا بأنفسهم. ثم ثنـّى بقوله:

{ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ }.

ولقد وبّخ الحق سبحانه بني إسرائيل فقال: { أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون}. البقرة (44).

نقل الحافظ ابن كثير رحمه الله، في تفسيره، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه جاءه رجل فقال: يا ابن عباس، إني أريدُ أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر. قال: أبَلغتَ ذلك ؟ قال: أرجو. قال: إن لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله فافعل. قال: وما هنّ ؟ قال: قوله تعالى:

{ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم }،[[34]](#footnote-35) أحْكمتَ هذه ؟ قال: لا. قال: فالحرف الثاني ؟ قال: قوله تعالى: { لِمَ تقولون ما لا تفعلون \* كبُر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون }،[[35]](#footnote-36) أحْكمتَ هذه ؟ قال: لا. قال: فالحرف الثالث ؟ قال: قول العبد الصالح شعيب عليه السلام: { وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح }،[[36]](#footnote-37) أحكمت هذه الآية ؟ قال: لا. قال: فابدأ بنفسك.[[37]](#footnote-38)

وأمّا الأولوية المنطقية، فلأنّ أمْرك غيرك بما لا تأتيه، ونهيَك غيرك عما تأتيه، تناقض مقيت ممجوج بالبداهة، فلا يُرْجى له قبول ولا نفع، ولكنه موجب للمقت الكبير من العليم الخبير، كما تقدم في آية الصف.

وفي الصحيحين، واللفظ للبخاري، عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ( يُجاء بالرجل يوم القيامة فيُلقى في النار، فتندلق أقتابه[[38]](#footnote-39) في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: أي فلانُ ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنتُ آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه).[[39]](#footnote-40)

ومن بديع شعر الحكمة في هذا المعنى، قول القائل[[40]](#footnote-41):

يا أَيُّها الرَجُلُ المُعَلِّمُ غَيرَهُ هَلا لِنَفسِكَ كانَ ذا التَعليمُ

تَصِفُ الدَّواءَ لِذي السَّقامِ وَذي الضَّنا كيما يَصحّ بِهِ وَأَنتَ سَقيمُ

وَتَراكَ تُصلِحُ بالرشادِ عُقولَنا أَبَداً وَأَنتَ مِن الرَّشادِ عَديمُ

فابدأ بِنَفسِكَ فانهَها عَن غَيِّها فَإِذا اِنتَهَت عَنهُ فأنتَ حَكيمُ

فَهُناكَ يُقبَلُ ما تَقولُ وَيُهتَدى بِالقَولِ منك وَينفَعُ التعليمُ

لا تَنهَ عَن خُلُقٍ وَتأتيَ مِثلَهُ عارٌ عَلَيكَ إِذا فعلتَ عَظيمُ

فالمرحلة الأولى من التغيير- وهو من أهم عناصر موقف المسلم من مصائب الأمة - أن ينظر المسلم في أمر نفسه ومن له عليه ولاية، فيصلح من أمر دينه، ويُقوّم عاداته وتصرفاته على وفق دين الله سبحانه.

إن كان من عادته التقصير في شيء من أمر الصلاة أو جَمَاعتها، أو كان من عادته أن يتعامل بالربا ويجترئ على المكاسب المحرمة والمشتبهة، أو كان من عادته أن يقلب الطرف أو يمتع السمع فيما حرم الله، أو كانت له هفوات في الخلوات، أو فجَرات ومنكرات في الأسفار، أو كان يعرف من نفسه الخيانة لشريكه، أو الإساءة لجاره، أو العقوق لوالديه، أو القطيعة لرحمه، أو التفريط في القِوامة والرعاية للأهل والولد، فليُبَادرْ إلى إصلاح شأن نفسه، وليجعل من مثاليته في علائقه وتعامله وسائر شؤونه، دعوة إلى الخير غير معلنة، وتمهيدًا للدعوة المعلنة إلى الخير، إحياءً لشرعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

**الوقفة الثانية: تنشيط لا تثبيط.**

ونحن إذ ندعو إلى شعار[ابدأ بنفسك] ننبه إلى أنه لا يصح أن يُفهم هذا الشعار على أنه ذريعة للتثبيط عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنما المقصود تنشيط الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر إلى حسن الالتزام، وحمل النفس على التغيير إلى الأحسن، وبين هذين الفهمين بَون كبير.

فإن المسلم إذا فهم الفهم الواهم، ورأى أن وجود نقيصة دينية فيه، يمنعه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد جرّ عليه ذلك الفهمُ سيئتين:

الأولى: أنه يكون قد عطل شرعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي ذلك التعطيل ما فيه من أسباب النقمة وحجب النعمة.

الثانية: أنه أصبح لا يرى ما يحفزه على ترك تلك النقيصة، لأنه لا ينهى عنها غيرَه، فليس لأحد عليه فيها ملامة.

وأما إذا فهم الفهم الصائب، ورأى أن قيامه على الأمر والنهي يقتضيه أن يكون أكثر ورعًا وتحريًا للخير، وتجافيًا عن الشر والشبهة، فإن ذلك يجمع له حسنتين:

الأولى: أنه يكون قد أحيا شرعة عظمى من شرائع الدين، ألا وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الثانية: أنه يجدُ في أمره الناس بالمعروف ونهيهم عن المنكر، ما يحفزه على التغيير الإيجابي المستمر، فيحرص على التنزه عن النقائص والتحلي بالكمالات، اتساقاً مع مقتضى الشرع والمنطق كما سبق.

وإلاّ فلو كان لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من لا يفعل معصية، لكان ذلك شرطًا تعجيزيًا مؤداه أن لا يكون هناك أمر بمعروف ولا نهي عن منكر، وذلك من منطلق أن كل بني آدم خطّاء، كما روى ذلك الترمذي وأحمد وغيرهما.

قال المُناوي في فيض القدير: قيل للحسن: فلان لا يعظ، ويقول: أخاف أن أقول ما لا أفعل. قال: وأيُّنا يفعل ما يقول ؟ ودّ الشيطان لو ظفر بهذا فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر.

ثم يقول المُناوي: ولو توقف الأمر والنهي على الاجتناب، لرُفع الأمر بالمعروف، وتعطل النهي عن المنكر، وانسد باب النصيحة التي حث الشارع عليها، سيَّما في هذا الزمان الذي صار فيه التلبس بالمعاصي شعار الأنام، ودثار الخاص والعام. اهـ.[[41]](#footnote-42)

**الوقفة الثالثة: مكائد على الطريق.**

وإذا أخذتَ نفسك أيها المسلم، بعزيمة التغيير الإيجابي والنقد الذاتي، فاحذر مكائد الشيطان ومصائده على طريقك، وذلك كأن يقوم في قلبك خاطر يقول: ما هذا التشدد والغلو في الالتزام؟! وليس الغلو من الدين.

أو يقول: أتريد أن تحقق العصمة؟! والعصمة للأنبياء خاصة، فهوِّنْ عليك فلا بد لك من الذنب.

أو يقول: وما قدر ذنبك بالنسبة إلى ذنوب سائر الناس ؟! وتجدك - إن ركنت إلى تلك الخواطر- تسوِّغ لنفسك الإقلاع عن مشروع التغيير، وتقول في نفسك مثلاً: إذا كنتُ أدخن التبغ، فغيري يشرب الخمر، وإذا كنتُ أشاهد المسلسلات والصور المنكرة، فغيري يغشى الفاحشة، وإذا كنتُ أتخلف عن صلاة الجماعة، فغيري لا يصلي أصلاً. وإذا كنتُ آكل المئات من الدراهم سُحتاً، فغيري يأكل الحرام ملايين، أو مئات الملايين، فما قدر ذنبي بالنسبة لهؤلاء ؟! ثم إن الله غفور رحيم، فلماذا أجعل الأمر أكبر من حجمه.

وهكذا، ما تزال تصغي إلى تلك الوساوس وتغتر بتلك الدسائس حتى ترى أنك لست على شيءٍ من الخطر أو النـُّكر الذي يستوجب التغيير.

فإذا بدا لك مثل هذا الخواطر، فاعلم بأنها سيئة أخرى أكبر من السيئة نفسها، بمعنى أنّ السيئة قد تكون صغيرة، ولكن استصغارها والإصرار عليها استخفافاً بها، يجعلها كبيرة.

وما يدريك، فرب صاحب كبيرة يستعظمها ويندم على فعلها، خيرٌ من صاحب صغيرة لا يراها شيئاً، فهو مقيم عليها لا يستغفر ولا يتوب.

روى الطبري في تفسيره بسنده إلى سعيد بن جُبير رحمه الله، أنّ رجلاً قال لابن عباس: كم الكبائر ؟ أسبع هي ؟ قال: إلى سبعمائة أقربُ منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار.[[42]](#footnote-43)

قال النووي، بعد أن نسب هذا القول لعمر وابن عباس رضي الله عنهم:

معناه أن الكبيرة تـُمحى بالاستغفار، والصغيرة تصير كبيرة بالإصرار.[[43]](#footnote-44)

ومكيدة أخرى شيطانية، يحاول الشيطان فيها أن يحول بينك وبين التغيير الإيجابي، وهي: أن يوسوس إليك - وأنت تجاهد نفسك في الكف عن المعصية - : وهل إعراضك عن هذه المعصية هو الذي هو الذي سيدفع عن الأمة عدوان المعتدين، ويبطل كيد الكائدين ؟!

هل توَرُّعك عن مشاهدة هذا المسلسل، وتعففك عن ذلك المحرم، هو الذي سيحرر فلسطين ويُعز الدين ؟ّ!

وقد تجد نفسك تضحك من هذا التصور الساذج، وتترفع عنه، وتتحرر منه بإقبالك المطمئن على المنكر، لأن حرمان النفس منه أصبح في نظرك سطحية وسذاجة تترفع عنها، وعندئذ يضحك الشيطان من سطحيتك وانقيادك السلس إلى حبائله.

وكان عليك أن تدحض هذه الوساوس الشيطانية، وتفضح ذلك التلبيس الإبليسي فتقول: ومن قال لك إن ترك المنكرات لا يُطلب إلا لدرء عدوان المعتدين، أو لتحرير الأرض من الغاصبين؟!.

إن ترك المنكر واجب لأنه منكر، ولأنه فعله مقرون بوعيد، ولأنه ندامة وحسرة يوم لا تنفع ندامة ولا حسرة.

ثم من قال: إن فعل المعروف وهجر المنكر لا يمكن أن يكون سببًا في خير يسوقه الله تعالى للأمة، أو شر يصرفه عنها؟!

رب سويعة من الشعور الإيماني الغامر الذي يعمر القلب بحقيقة التوحيد، وما يقتضيه ذلك من رجاء وخوف، ووجد وشوق، وفكرة تورث عـِبرة، أو تسفح عَبرة، سويعة من الحضور القلبي مع الله سبحانه، يرضاها الله تعالى من عبده، فيعطيه عليها ما لا يعلمه إلا هو سبحانه، من خيري الدنيا والآخرة، وقد يُشَفعه فيما لا يحصيه العد، وقد يكرم بسببه أهله وأصحابه، أو قومه وأمته.

وكما أنه لا عجب أن يصيب الله تعالى الجماعة أو الأمة بذنوب بعضهم، كما قال تعالى: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً}[[44]](#footnote-45)، فكذلك لا عجب أن يكرم الله تعالى الأمة ويرحمها بصلاح بعض أفرادها.

ففي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، مرفوعًا:

( إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره )[[45]](#footnote-46)

وفي الصحيحين واللفظ لمسلم، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يأتي على الناس زمان، يُبعث منهم البعث، فيقولون: انظروا هل تجدون فيكم أحدًا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فيُوجد الرجل، فيُفتح لهم به. ثم يُبعث البعث الثاني، فيقولون: هل فيهم من رأى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فيُفتح لهم به. ثم يُبعث البعث الثالث، فيقال: انظروا هل ترون فيهم من رأى من رأى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ؟ ثم يكون البعث الرابع فيقال: انظروا هل ترون فيهم أحدًا رأى من رأى أحدًا رأى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فيُوجد الرجل، فيُفتح لهم به).[[46]](#footnote-47)

فإذا كانت الأمة بأسرها قد تنتفع بيُمن طاعة بعض الطائعين، فلا عجب أن تـُسَاء الأمة بأسرها بشؤم معصية بعض العاصين.

ولقد كان في عباد الله من يُمسك عن الذنب أو يتوب منه وهو يخشى صادقاً أن يُعذب الله الأمة بجريرته.

جاء في " نهاية الأرب ": أنه لما نشبت الحرب بمكة بين جيش الشام بقيادة الحصين بن نمير، وبين جيش عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، المحاصَر بمكة، وذلك في الرابعة والستين للهجرة، كان من تداعيات المناوشات بين الفريقين أن وقع حريق في أستار الكعبة وأخشابها، فتصدع بنيانها، فوقع في قلوب الناس هيبة شديدة، وخافوا أن ينالهم الله بنقمة من جريرة ذلك، فكان ابن الزبير يسجد ويقول في سجوده: " اللهم إني لم أتعمد ما جرى، فلا تهلك عبادك بذنبي، وهذه ناصيتي بين يديك."[[47]](#footnote-48)

ونقل ابن الأثير في تاريخه، عن الحسن الوصيف، وهو أحد موالي الخليفة المهدي العباسي – والد هارون الرشيد - وأحد قادة جيوشه، قال: أصابتنا ريح شديدة أيام المهدي، حتى ظننا أنها تسوقنا إلى المحشر، فخرجت أطلب المهدي، فوجدته واضعاً خده على الأرض وهو يقول: اللهم احفظ محمداً في أمته، اللهم لا تـُشْمِت بنا أعداءنا من الأمم، اللهم إن كنتَ أخذتَ هذا العالم بذنبي، فهذه ناصيتي بين يديك.

قال: فما لبثنا إلا يسيراً حتى انكشفت الريح وزال عنا ما كنا فيه.[[48]](#footnote-49)

ومما جرى من هذا القبيل، ما نقله الحافظ الذهبي، من أخبار الخليفة الشهير عبد الرحمن الناصر- أحد خلفاء الدولة الأموية في الأندلس- أنهم أَصَابَهُم قَحْطٌ، فَجَاءَه رَسُوْلُ قَاضيه: المنذر بن سعيد البَلُّوطي، يحرّكُه للخُرُوْج، فلَبِس ثوْباً خَشِناً، وَبَكَى وَاسْتغفر وَتذلَّل لربِّه، وَقَالَ: نَاصيتِي بيدك، لاَ تعذب الرَّعيَة بي، لَنْ يفوتك مِنِّي شَيْءٌ.

فَبلغَت مقالته القَاضِي، فتهلَّل وَجهه وَقَالَ: إِذَا خَشَعَ جبَّارُ الأَرْض، يرحم جَبَّارُ السَّمَاء، فَاسْتَسْقوا وَرُحِمُوا**. [[49]](#footnote-50)**

فلا يحقرنَّ مسلم تبعة معصيته على نفسه، أو على مجتمعه وأمته، بل وعلى المُناخ والبيئة والدواب والطير.

قال ابن القيم في الجواب الكافي - في سياق تعداد تبعات الذنوب ومغارمها في الدنيا قبل الآخرة - : (ومنها أن غيره من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنبه، فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم. قال أبو هريرة رضي الله عنه: إن الحُبارى لتموت في وَكرها من ظلم الظالم.

وقال مجاهد: إن البهائم تلعن عصاة بني آدم إذا اشتدت السَّنة وأمسك المطر، وتقول: هذا بشؤم معصية ابن ادم. وقال عكرمة: دواب الأرض وهوامها، حتى الخنافس والعقارب، يقولون: منعنا القطر بذنوب بني آدم.

فلا يكفيه عقاب ذنبه حتى يبوء بلعنة من لا ذنب له).[[50]](#footnote-51)

**الوقفة الرابعة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب شرعي.**

لا تحسبْ أنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من نوافل المسلم أو من أعماله التطوعية، إنه تكليف واجب داخِل في صميم التصور الإسلامي المثالي، الذي تُشكِّله وتوحي به كوكبةٌ كريمة من آيات القرآن الكريم، التي ترسم لنا ملامح المجتمع المسلم المثالي الخيِّر، فتجعل من أبرز ملامحه، بل من أهم فضائله، شرعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بحيث لا يتم تصور صحيح لمجتمع مسلم فاضل، بدون هذه الشرعة.

تجد تلك الآيات أنى نظرت أو قرأت في ثنايا سُوَر القرآن.

ففي آل عمران: { وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [آل عمران : 104]

وفيها أيضاً: { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران : 110]

وفي سورة التوبة: { وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71).}

وفيها أيضاً، يعدد الله تعالى كمالات المؤمنين وفضائلهم، فيقول: {التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}.(112)

وقد سبق قبلُ، ذكرُ قوله تعالى في سورة الحج: {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (41)}.

ثم إن المؤمنين إذ ينهضون بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما أثنى الله تعالى عليهم في الآيات المتقدمة، فإنهم في ذلك يقتدون بإمامهم وحبيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي قال الله تعالى عنه في الأعراف: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157)}.

وإذا ترقينا في النظر أكثر، وجدنا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من صفات أفعال الحق سبحانه، الذي قال عن نفسه: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [النحل: 90]

**الوقفة الخامسة: غيظ الشيطان والمنافقين.**

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو أغيظ شيءٍ للشيطان وأوليائه

من المنافقين والفاسقين الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا.

ولئن أخبرنا الله تعالى في الآية التي تقدم ذكرها من سورة التوبة، أن المؤمنين والمؤمنات {بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر}، فقد أخبرنا الله سبحانه، في السورة ذاتها بنقيض ذلك عن المنافقين والمنافقات، فقال: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}. التوبة (67).

ولئن كان المؤمنون والمؤمنات يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر مؤتسين بإمامهم ووليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن المنافقين والمنافقات يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف مؤتسين بإمامهم ووليهم إبليس وذريته من الشياطين الضالين المضلين.

وقد حذرنا الله تعالى من تلك القدوة الضالة، والتبعية المهلكة حين قال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ}. النور (21)

فها أنت أيها المسلم مدعو إلى الانحياز إلى أحد فريقين، فريق المؤمنين الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، مقتدين برسول الله صلى الله عليه وسلم، وفريق المنافقين والفاسقين الذين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، مقتدين بالشيطان الرجيم. فلينظر امرؤ أين يضعُ نفسه؟.

**الوقفة السادسة: خطورة التفريط.**

وإذا سألت: لماذا كانت قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بهذه الأهمية ؟ وما صلتها بما نحن بصدده من البلاء الذي لا يزال يعصف بالأمة وينذر بالمزيد، صبَّحها أو مسَّاها ؟

فالجواب: أن نصوص الشرع قد دلّتنا على أنّ إحياء هذه الشرعة له ثمرات جليلة عظيمة، منها اتقاء سخط الله عز وجل، والعياذ من لعنته التي أحلّها على الذين لا يتناهون عن المنكرات ولا يغضبون لتعدي حدود الله، ولا يغارون على حرماته.

وذلك أن الله تعالى قال في ذم وتوبيخ بني إسرائيل على هذا الأمر في سورة المائدة: { لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (78) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (79) }

وإذا كان من أبرز ثمرات إحيائها اتقاءُ سخط الله، فإن من أبرز نتائج تعطيل هذه الشرعة والتفريط فيها، استجلابُ المصائب والفتن والمِحن التي تضرب المجتمع الذي يسكت فيه الناس عن إنكار المنكر.

وما أشده من وعيد على ذلك نقرؤه في قول الحق سبحانه:

{وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}. الأنفال،(25).

ومعناها: أن الفتنة قد تعم الظالمين الذين باشروا الظلم، وغير الظالمين من أفراد المجتمع، وإنما عمّت الذين لم يباشروا الظلم، لأنهم أساؤوا وظلموا بصورة غير مباشرة، حين سكتوا عن الظلم وأهملوا واجب إنكاره.

فإذا رأيتَ أمة أو مجتمعًا ما، قد ظهر فيه الظلم أيًا كانت صورته، ضُيِّعت فيه الحقوق، أو عُطلت فيه الحدود، أو تنامى فيه الفجور، أو انـتـُهِكت فيه الحرمات، أو استـُعلن فيه بالمنكر، فأُكل الربا علانية، أو أظهر الفاسقون والفاسقات ما كان خفي من فسقهم، أو ظـُلِمَ المساكين والأيتام، أو قـُطـِّعت الأرحام، من غير أن يقوم بواجب الإنكار أحد، لا من الخاصة ولا من العامّة، ولا من ذوي العلم ولا ذوي السلطان، فاعلم بأن تلك الجماعة أو ذلك المجتمع مهدد ببلاء عام، أو فتنة شاملة تلِج على المحسن والمسيء، وكلٌّ مسيء، فأما المسيء فإساءته هي إساءته، وأما المحسن فإساءته أنه لم ينكر على المسيء إساءته.

ولذلك نقول: إن من أوجب واجبات المسلم في هذه الأزمان، ومن أهم عناصر موقفه عند حلول المصائب في الأمّة، أن يكون عنصرًا فعّالاً في التغيير، في إزالة المنكر وإشاعة المعروف، فإنه بذلك يَشيد حصن أمان لنفسه ومجتمعه، وإلا كانت المصيبة تطول الجميع، وذلك كشأن الراكبين متن السفينة، إن خرقها أحدهم لم يقتصر الغرق على من خرق، إلا أن يحولوا بينه وبين مفسدته فإنه يَسْلم ويَسْلمون.

وقد مثل النبي صلى الله عليه وسلم قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأثرها في المجتمع، وجودًا وعدمًا، بالسفينة وركابها، وذلك في حديث البخاري، عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ( مَثـَل القائم على حدود الله والواقع فيها كمَثـَل قوم استهموا[[51]](#footnote-52) على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم. فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا. فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجَوا، ونجَوا جميعا).[[52]](#footnote-53)

فهل يستشعر العقلاء والمصلحون في علاقتهم مع المجتمع، شعور أهل السفينة ؟ وهل ينظرون إلى أهل المنكر المجاهرين به، على أنهم يريدون أن يخرقوا السفينة ليَغرقوا، ويُغرقوا من عليها ؟.

إن التعامل مع القضية بهذا المنطق الإيماني، ينفي عمّن ينكر المنكر تهمة التدخل في الأمور الشخصية للآخرين، وهو في نفس الوقت ينادي بالتهمة على أهل المنكر، بأنهم يجعلون حياة الأمة والمجتمع عرضة للخطر المحقق، ومن حق الأمة والمجتمع أن ينكر عليهم منكراتهم، وأن يَحُول بينهم وبينها حفاظاً على سلامة ونجاة الجميع .

**الوقفة السابعة: ضوابط إنكار المنكر.**

إذا عرفنا أهمية إنكار المنكر وخطورة التفريط فيه، فلا بد من أن يتقيد ويتحلى من يقوم بواجب الإنكار، بالضوابط والآداب والشروط المعتبرة شرعًا، حتى لا يجرّ الإنكار إلى ما هو أنكر، فينقلب الإصلاح إفسادًا.

ومن تلك الضوابط:

1. أن يكون الأمر الذي تنكره وتنهى عنه، مُجْمَعًا على أنه منكر، فأما إذا كان يتسع له هامش الخلاف السائغ ، كالخلاف الاجتهادي الفقهي في مسائل الفروع، أو الخلاف بين القراءات المتواترة، أو الخلاف في مجال البدائل المباحة، كأن تجد من يخالفك في نوع الإحرام بالنسك، فإن الأنساك الثلاثة جائزة، أو يخالفك في كفارة الأذى واللبس في الإحرام، فإن كلاً من الصيام والإطعام والنسيكة جائز على التخيير من غير غضاضة، فليس المخالف في هذه الأمور ونحوها صاحبَ منكر ولا بدعة، ولا يصح الإنكار عليه. بل نقول: إن الإنكار في مثل تلك الأحوال هو المنكر.
2. أن يكون الإنكار في حدود الوسع والطاقة، عملاً بحديث مسلم، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه قال: ( سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)[[53]](#footnote-54)
3. إذا كان يرى أنه يستطيع أن ينكر بيده أو بلسانه، فليحذر أن يؤدي ذلك الإنكار إلى ما هو أشنع، فإن من شروط إنكار المنكر أن لا يؤدي إلى منكر أشد.
4. أن يكون الإنكار بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يبدأه باللين والرفق، فإن (الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه )، كما جاء في الصحيح من حديث أم المؤمنين عائشة الصديقة رضي الله عنها.[[54]](#footnote-55)

وقد قال سبحانه في محكم التنزيل: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}. النحل(125).

نقل الحافظ ابن كثير في تاريخه،في ترجمة الخليفة العباسي هارون الرشيد، رحمه الله، قال: بينما الرشيد يطوف يومًا بالبيت، إذ عرض له رجل فقال: يا أمير المؤمنين إني أريد أن أكلمك بكلام فيه غلظة. فقال: لا، ولا نعِمَتْ عين، قد بعث الله من هو خير منك، إلى من هو شر مني، فأمره أن يقول له قولا ليناً.[[55]](#footnote-56)

يشير الرشيد بذلك إلى قوله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام:

{اذهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [طه: 43، 44]

وينقل ابن كثير عن هارون نفسه رحمه الله، أن ابن السمّاك[[56]](#footnote-57) وعظه يومًا فكان فيما قال: إنك تموت وحدك، وتدخل القبر وحدك، وتبعث منه وحدك، فاحذر المقام بين يدي الله عز وجل، والوقوف بين الجنة والنار، حين يؤخذ بالكَـَظـَم[[57]](#footnote-58)، وتزل القدم، ويقع الندم، فلا توبة تقبل، ولا عثرة تقال، ولا يُقبل فداء بمال. فجعل الرشيد يبكي حتى علا صوته، فقال يحيى بن خالد البرمكي: يا ابن السمّاك، لقد شققت على أمير المؤمنين الليلة. فقام فخرج من عنده وهو يبكي.

وقال له الفضيل بن عياض في كلام كثير، ليلة وعظه بمكة: يا صبيح الوجه إنك مسؤول عن هؤلاء كلهم. وقد قال تعالى: { وتقطعت بهم الأسباب}[[58]](#footnote-59) قال: حدثنا ليث عن مجاهد: الأسباب: الوصلات التي كانت بينهم في الدنيا. فبكى الرشيد حتى جعل يشهق.[[59]](#footnote-60)

فانظر كيف نفر الرشيد من الغلظة ورفضها، وكيف رقّ للرقائق، ولانَ قلبه للقول اللين.!

ورحم الله الشاعر صفي الدين الحلي إذ يقول:

إنما هذه القلوبُ حديدٌ ولذيذ الألفاظ مغناطيسُ.

**المبحث الثاني: الحذر من المكر الإعلامي.**

من أهم مكونات الموقف الإيجابي للمسلم الذي ينتحي منحى التغيير والإصلاح في الفتن الهوجاء والمصائب العامة، أن يكون على حذر من أن يقع ضحية المكر الإعلامي المعادي.

فإن ما تتعرض له الأمة من هجمة إعلامية لا يقل شدةً وشراسة عمّا تتعرض له من هجمة عسكرية ضارية، بل إن العُدة الإعلامية أهم عند أعداء أمتنا من عُدتهم العسكرية، إذ كثيرًا ما يحققون بسلاح الإعلام وترويج التلبيس والمغالطات عبر التصاريح والبيانات والتقارير الصحفية، ما لا يحققونه بالمدافع والدبابات وأحدث المقاتلات.

وقد كان الإعلام منذ قديم الزمان، وما زال، من أهم أسلحة الحرب النفسية، التي تدخل في الحسابات العسكرية من أوسع أبوابها.

وهلم فنتناول هذا المبحث من ثلاثة محاور:

**المحور الأول: الحرب الإعلامية في العصر النبوي.**

لقد وظّف النبي صلى الله عليه وسلم هذا السلاح بنجاح باهر في موقعة الأحزاب، حين قال لنـُعَيم بن مسعود الأشجعي رضي الله عنه: خـَذّلْ عنا فإن الحرب خدعة.

وكان نُعَيْم رضي الله عنه قد قدِم على النبي صلى الله عليه وسلّم سرًا أيام اجتماع الأحزاب، فبايعه على الإسلام، ثم انطلق بإذن النبي صلى الله عليه وسلم، إلى جموع قريش وغطفان، وإلى قريظة في حصنهم، فألقى بينهم الاختلاف بدعوى النصيحة لكلٍّ منهم، وهم لا يعلمون بإسلامه، فكان ذلك من أسباب خذلان بعضهم بعضاً، حتى أرسل الله على الأحزاب الريح فأجلاهم عن المدينة، ثم أنزل الله ببني قريظة بأسه الذي لا يُرَد عن القوم المجرمين، فكان نعيم بعد ذلك يقول: أنا خذلتُ بين الأحزاب حتى تفرقوا في كل وجه، وأنا أمين رسول الله صلى الله عليه وسلم على سره.[[60]](#footnote-61)

وقبل ذلك وظّف النبي صلى الله عليه وسلّم هذا السلاح في أعقاب غزوة أحد، عندما أراد أن يصرف المشركين الراجعين إلى مكة بعد الغزوة، عن التفكير في العودة إلى المدينة للإجهاز على الإسلام فيها، بعد أن نالوا من المسلمين ما نالوا قتلاً وجرحًا.

وذلك أنّ أبا سفيان، قائد جيش المشركين في تلك الموقعة، انصرف هو وأصحابه، فلما كان في بعض الطريق تلاوموا فيما بينهم: وقال بعضهم لبعض: لمْ تصنعوا شيئا، أصبتم شوكتهم وحَدَّهم، ثم تركتموهم وقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم، فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم.

فبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فنادى في الناس وندبهم إلى المسير إلى لقاء عدوهم، وقال: ( لا يخرج معنا إلا من شهد القتال)

فخرج النبي صلى الله عليه وسلم في إثر جيش المشركين، بمن كان معه في أحُد، على ما هم عليه من الجراح والضر، حتى نزلوا مكاناً يقال له: حمراء الأسد، وهناك أقبل معبد بن أبي معبد الخزاعي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم، وقال: أما والله لقد عزّ علينا ما أصابك في أصحابك،ولوددنا أنّ الله عافاك.

وكان معبد ناصحًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، لما كان بين خزاعة وبني هاشم من الحلف، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلحق بأبي سفيان فيـُخـَذله، فلحقه بالروحاء، ولم يعلم بإسلامه، فقال أبو سفيان: ما وراءك يا معبد؟

قال: محمد وأصحابه، قد تحرقوا عليكم وخرجوا في جمع لم يخرجوا في مثله، وقد ندم من كان تخلف عنهم من أصحابهم.

فقال: ويحك ما تقول؟ فقد أجمعنا الكرّة عليهم لنستأصلهم.

قال: لا تفعل فإني لك ناصح، فوالله ما أرى أن ترتحل حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة.

وحينئذٍ دبَّ الخوَر في عزائم الجيش المكي، ولم يروا الغنيمة إلا في الإياب، فواصلوا الانسحاب إلى مكة.

ولأنّ أبا سفيان أراد أن يتفادى ما خوّفه معبد من طلب جيش المسلمين إياه، فإنه شنّ حربًا إعلامية مضادّة، وذلك حين مرّ به ركب من بني عبد القيس يريد المدينة، فقال لسيدهم: هل لك أن تبلغ محمدًا رسالة، وأوقرُ لك راحلتك زبيباً إذا أتيت إلى مكة؟ قال: نعم. قال: أبلغ محمداً أنا قد أجمعنا الكرة لنستأصله ونستأصل أصحابه.

فلما مرّ الركب برسول الله صلى الله عليه وسلّم وأصحابه، بحمراء الأسد، بلّغوهم رسالة أبي سفيان، وخوّفوهم وأنذروهم. ولكن هيهات أن تنال تلك الحرب الدعائية من قوم يلوذون ويستنصرون بمن له القوة جميعًا، ويعيشون بحالهم وفعالهم ومقالهم حقيقة أن لا إله إلا الله، وصِدْق التوكل عليه سبحانه.

فما كان منهم إلا أن قالوا : { حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ }.[[61]](#footnote-62)

ولقد أنزل الله تعالى يثني على المؤمنين، في حسن ثباتهم في مواجهة الحرب الدعائية، وحُسن ردهم عليها، فقال سبحانه في آل عمران:

{الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (172) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (173) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (174) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُون إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (175) }

**المحور الثاني: الحرب الإعلامية المعاصرة.**

إن الحرب الإعلامية الدعائية ذات شأن اليوم في المواجهات بين الأمة وأعدائها على جميع الجبهات وفي كل الميادين، العسكرية والثقافية والنفسية والاقتصادية وغيرها.

ولئن كانت هذه الحرب ذات شأن في الصراعات منذ القديم، على بدائيتها وضعف وسائلها آنذاك، فكيف بها اليوم وقد طـُوِّرت وسائلها وطـُوِّعت أدواتها بشكل مُذهل لكل من المرسِل والمستقبِل، وتعددت صنوف الإثارة فيها، وأدوات التأثر بها ؟!

ثم كيف إذا رأينا أنَّ هذا السلاح هو السلاح الأهم اليوم، بل الفاصل في نتائج المعركة.؟!

كيف إذا رأينا بأم أعيننا فاعلية الإعلام المعادي في صفوفنا، وكيف أنه استطاع عبر التركيز المكثف والضغط المتواصل أن يجعل الأمة في سوادها الأعظم تتخلى طواعية عن مبدأ مقاومة العدو ولو طغى وبغى واجتاح الديار وسفك الدماء وانتهك الحرمات واستباح الثروات.؟!

وإنك لتعجب وأنت تسمع من هنا وهناك من يستعلن بهذا التخلي جهاراً بصراحة لا يشوبها لبس ولا يسترها تأويل.

ولكنه الكيد الإعلامي المعادي الذي استطاع أن يُسوِّق مصطلح (الإرهاب) على السواد الأعظم من الأمة وعلى كثير من النخب الثقافية والسياسية والإعلامية، وبالمعنى المحدد الذي يعنيه ذلك الإعلام لهذا المصطلح الذي كان يقترن بمعنى حميد في ثقافتنا وفي كتاب شريعتنا، {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ **تُرْهِبُونَ** بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ} [الأنفال: 60]

ولكن الحملة الإعلامية المعادية غسلت أدمغة الجماهير من الأمة من ذلك المعنى السامي الشريف للإرهاب، وجعلت النظرة إليه معكوسة منكوسة، على المستوى النفسي والعملي.

فأما على المستوى النفسي فقد أصبح هذا المصطلح مقترناً بالاشمئزاز النفسي التلقائي.

وأما على المستوى العملي فقد انحسر بشدة الحديثُ عن الجهاد والإعداد، وتوارى- على نحو لافت- عن ساحتي الإعلام والتعليم، بل وعن الساحة الثقافية بوجه عام.

ومعلوم أن الإعلام والتعليم هما اللذان يشكلان هيكل ثقافة الأمة.

ولا شك أن توجه الأمة الحضاري يمضي على هدي ثقافتها، فلما شـُوّهت الثقافة، انحسرت وانحدرت الحضارة.

وكيف لا تنحسر وتندحر حضارة أمة محت من معاجمها الإعلامية والتعليمية مصطلح المقاومة ومبدأ الجهاد والإعداد، في وقت هي فيه أحوج ما تكون إلى إحياء ذلك المبدأ وتفعيل ذلك المصطلح.؟!

وقِسْ على ذلك أثرَ المكر الإعلامي المعادي في تضمير وتقتير الإنفاق الطوعي الذي كان من قبلُ كثيراً غزيراً في الأمة، وكان يسد ثغرات ويلبي حاجات مهمة، دعوية وإنسانية وتعليمية وتربوية ودفاعية.

ولكن الحملات الإعلامية المعادية جعلت من البذل الذي هو فضيلة سَنية من الفضائل النفسية والإيمانية في آنٍ واحد، لأنه يدل على نبل النفس التي تحررت من رذيلة الشح، وعلى قوة اليقين بموعود رب العالمين الذي طالما دعا إلى البذل ورغب فيه وحض عليه عبْر ما لا يُحصى من نصوص الكتاب والسنة ووقائع سيرة النبي الكريم صلى عليه وسلم، وسيرة أصحابه الأبرار رضي الله عنهم.

جعلت الحملات الإعلامية التقرب إلى الله تعالى ببذل الأموال تهمة، بل إدانة بجريمة غـَيـَّبت الكثيرين في غياهب السجون، لا لأنهم يسرقون أو يختلسون، ولا لأنهم يبخلون ويأمرون الناس بالبخل، بل لأنهم يبذلون ويدْعون الناس إلى البذل.

**ومثال آخر** من أمثلة تأثير المكر الإعلامي المعادي على ثقافتنا وتصرفاتنا، ألا وهو مسخ رؤيتنا الشرعية للحق والباطل والخير والشر والمقبول والمرفوض.

لقد جعلونا ننظر إليهم بعيونهم، ونـَزنـُهم بمعاييرهم هم، لا بمنظار ديننا ولا بمعيار عقيدتنا للحق والباطل.

هذا في الوقت الذي لا يغـَيرون فيه من نظرتهم المعادية إلينا وإلى ديننا قـِيـد أنملة، إلا أن يكون التغيير إلى ما هو أكثر عداوة وحقداً.

وغير خاف على المتابع للواقع الثقافي والإعلامي في الأمة كيف تلاشت كلمة (كفار) عن الساحة، وعزبت عن أقلام كثير من الكتاب، وثقلت على ألسنة كثير من المتحدثين، لتحل محلها كلمة (الآخـَر).

واستمرأ الناس تسمية الأشياء بغير أسمائها، وتقويمها بكل معيار إلا معيار الشريعة العظيمة التي رضيها الله لنا ديناً

ومن هذا القبيل تسمية الخمور مشروبات روحية، وتسمية الربا فوائد ربحية، وتسمية الزندقة إبداعاً وحرية فكرية، وتسمية التبرج والتهتك حرية شخصية، هذا في الوقت الذي لا يتسع فيه هذا التسويغ للمسلمة المحجبة لتختار اللباس المحتشم الذي تراه من مقتضيات التزامها بدينها.

وهاهي أوربا، وبكل ثقلها السياسي والثقافي والعسكري على مسرح الكون، تتداعى دولها الكبرى قبل الصغرى، معلنة النذير والنفير ضد بضعة آلاف من المسلمات المحجبات على أراضيها - في غمرة تلك الكتلة البشرية الهائلة - اخترن أن يصنّ أجسادهن عن نظر من لا يحل له النظر إليهن من الرجال.

وهذا تناقض مكشوف، وكـَيل بمكيالين متباينين متفاوتين تفاوتَ ما بين القنطار والقطمير، ولكن التركيز الإعلامي القوي والموجَّه، ما يزال يلقي بالغِشاوات والأغباش على البصائر والأبصار، فلا يستوقفها ذلك التناقض الصارخ. كيف أصبح التكشف إلى حد الفجور حرية مكفولة؟! والتصوّن والتعفف والحجاب خطراً محظورا منكورًا، تـُجَيش ضده القرارات والمراسيم الظالمة التي تصل إلى حرمان المحجبة من أعظم حقين مكفولين لكل إنسان، هما حق التعلم وحق العمل ؟!

إن ذلك لعجيب، وأعجب منه الانخداع به، بل والتصفيق له ومباركته، حتى لقد أصبح صداه في بعض ديار المسلين يتفوق صخباً وجلبة على مصدر صوته الأصلي.

إنه الكيد الإعلامي المعادي للأمة، الذي ما يزال يؤدي رسالته في أمة زهدت في دينها الذي هو معقد عزها، وأشرَعت أبوابها لكل وارد، وكل فكر وافد، تتلقاه وتنطبع به في سذاجة واسترخاء، حتى ولو زعزع الثوابت والمُسَلـَّمات.

وإنك لتجد ثمرة ذلك عندما ترى في الأمة من يرى المنكر معروفاً والمعروف منكراً، أو عندما ترى من يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف، أو عندما ترى في الأمة قوماً يوادُّون من حادّ الله ورسوله، ويكرهون من انحاز إلى الله ورسوله، أو عندما ترى قوماً في الأمة أعزة على المؤمنين أذلة على الكافرين - على عكس ما أثنى الله تعالى به على الذين يحبهم ويحبونه - أو عندما ترى المستغربين من أبناء المسلمين الذين لم يبق من معالم إسلامهم إلا أسماؤهم، أما الهوى والثقافة واللغة واللباس وأساليب الحياة في ميادينها المختلفة، فمتسق متفق مع الرسالة الإعلامية الغازية.

ولذلك كان لا بد لنا - ونحن نتحدث عن موقف المسلم مما يجتاح أمَّته - من التعريج على هذه القضية التي أوقعت في الأمة هذا الارتكاس والانتكاس الذي جعل الأمور معكوسة على هذا النحو الصارخ.

إنه سلاح الإعلام الذي بث في الأمة روح الهزيمة من غير قتال، وروح الاستسلام إلى غير سلام.

إنه سلاح الإعلام الفتاك الذي يكاد يستقل به عدونا دوننا !!

وذلك أن أكثر الآلة الإعلامية في الأمة اليوم، إمّا منسحبة من المعركة، واقفة على الحياد المقيت، قد شغلت كل إمكاناتها التقنيةِ والبشريةِ والمالية، وشغلت معها متابعيها، بكل ساقط من البرامج والمَشاهد والصُّور والأنشطة التي لا خير فيها، بل هي شر محض، قد قصرت الهمَّ على إمتاع الأبصار والأسماع، وإشباع الأهواء التي لا تشبع.

وإما منسجمة مع الإعلام المعادي، منحازة إليه، موالية له، قد جعلت من نفسها بوقاً لدعايته،ومُروّجًا لبضاعته.

وقليل على الساحة ذلك الإعلام الهادف، الذي له رسالة إيجابية في خدمة الأمة وقضاياها الكبرى، والتعامل مع همومها بحماسة واهتمام.

وهذا القليل هو الذي يجب على المسلم أن يبحث عنه، وأن يروّج لقضاياه، وأن يشيع تحليلاته ورُؤاه.

أما أن يذيع المسلم ويُشيع كل ما يُطـْرح، أو كل ما يُتوقع، أو كل ما يَسمع، فهذا سلوك مقيت، وَبَّخ القرآنُ عليه من كان يفعله في العصر النبوي من ضعاف الإيمان.

وهذا يسلمنا إلى المحور التالي في هذا المبحث، وهو:

**المحور الثالث: منهج القرآن في التعامل مع الحرب الإعلامية.**

لقد رسم القرآن للمسلمين منهج التعامل مع سلاح خطير من أسلحة الإعلام المعادي، ألا وهو الإشاعة المغرضة، الإشاعة التي يسربها بـِدَهاء، ثم يتخذ من المسلمين مبلغين ومروجين بالمجان لتلك الإشاعة التي يريد أن يَدخل بها كل بيت، ويطرق بها كل أذن، ويُرجف بها في كل نفس.

جاء القرآن بهذا المنهج في سياق علاج تصرف سلبي وقع فيه من وقع من المنتمين إلى الأمة إبان تلك المواجهات في العهد النبوي، وحصّن المسلمين بتوجيه تربوي نفيس، في مواجهة الحرب الإعلامية المعادية، فقال سبحانه في سورة النساء: { وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلا قَلِيلا (83)}.

فقد عَصَمَنا لله تعالى بهذا المنهج من أن نكون أبواقاً للمضلين والمناوئين الذين يَفـُتـُّون في عضد الأمّة، ويُثـَبطون ويُخـَذلون.

وذلك لأنّ الذي يَسمع الإشاعة، ثم يُذيعها وينشرها، وهو لم يُقدِّرْ عواقبها، أو قَدَّر عواقبها، ولكنه لا يشعر بالولاء الحقيقي لجماعة المسلمين، فإنه قد يجرُّ بذلك من سوء العواقب ما لا يعلمه إلا الله.

وسواء في ذلك أكانت الإشاعة إشاعة أمن أو إشاعة خوف، فإن الترويج للشعور بالأمن في معسكر متأهب، متوقع من العدو حركة ما، وبثّ روح الطمأنينة التي تفضي إلى الاسترخاء في مثل تلك الحالة، قد يكون مَهلكة وأي مَهلكة.

كما أن إشاعة الخوف، وبثَّ روح الذعر في معسكر مطمئن لقوته وكفاءته، آخذٍ بأسباب عُدته، قد تـُفقده ثمرة عُدّته وقوته، لأن العدة المادية، وإن كانت عالية، لا تغني شيئاً إذا تسللت الهزيمة النفسية إلى القلوب.

فليكن المسلم على بينة في كل ما يُنْقل إليه، قبل أن ينقله إلى غيره، فقد يكون الخير في وأده وكتمانه، كما قد يكون الخير في نشره وإعلانه، وإذا اشتبه الأمر فلينظر المرجعية التي يطمئن إلى كفاءتها وحسن نُصحها للأمة.

وذلك قوله سبحانه، في الآية المتقدمة من سورة النساء: { وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُم}.

هذا هو منهج القرآن في التحذير من المكر الإعلامي الكفري الذي يسعى دائبًا جاهدًا إلى تشويه وجه الحق، وإخفاء قبح الباطل، ومخادعة المسلمين عن دينهم وعن أمتهم، وعن مصالحهم الحقيقية وقناعاتهم الدينية، بل حتى عن قناعاتهم العقلية، وذلك عبر حملة مسعورة من الدس والجس والتمويه، بل والكذب الصريح المفضوح، المشفوع بعصا الترهيب أو أطماع الترغيب.

والحق أن أخذ المسلم نفسه بهذا المنهج لا يختص بحالات المحن والفتن، إذ هو فضيلة خلقية وواجب شرعي يجب التحلي به في كل حين، ففي صحيح مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ( كفى بالمرء كذبًا أن يُحدث بكل ما سمع).[[62]](#footnote-63)

وفي سنن أبي داوود، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ( بئس مطية الرجل زعموا).[[63]](#footnote-64)

ولكنه يكون أوجب في حالة الهجمة العدوانية الشرسة التي تستهدف الأمة في هذه الأزمان العصيبة الصعيبة، وذلك لأن الغفلة عن ذلك في مثل هذه الأحوال، تعتبر من قبيل التمكين للأعداء، والتخلية بينهم وبين الأمة، والخِذلان للمؤمنين.

فلا يَحْْقِرنَّ مؤمن موقعه، بل يجب أن يعلم كل مسلم أيًا كان شأنه، أنه على ثغر من ثغور الإسلام، فليَحْذر أن يُؤتى الإسلام من قِبَلِه.

**المبحث الثالث: الولاء والبراء**.

القضية التي نتناولها في هذا العنوان، تعتبر عنصرًا بالغ الأهمية في العناصر المكونة للموقف المثالي الذي يجب أن يقفه المسلم الذي ينشد التغيير ليستنقذ الأمة من المصائب والفتن التي تحيق بها.

قضية ذات أصل قلبي ومظهر عملي، إنها قضية الولاء والبراء، قضية وجوب موالاةِ الملة وأهلها، ولو تباعدت الأعراق والأقطار؛ ومعاداةِ أعداء الأمة، وتحريمِ وتجريم موالاتهم، ولو كانوا من الأدْنـَيْنَ نسبًا ودارًا.

والموالاة قد تكون بالمودة القلبية، وقد تكون بالنصرة والمساندة العملية، وقد تكون بهما معًا.

وإن نظرة عابرة إلى حال الأمة اليوم، تقفنا على خلل كبير وتفريط خطير في هذا المبدأ، يقتضينا أن نذكِّر به وبضرورة إحيائه في الأمة، إبقاءً على هويتها، واتقاءً لسخط ربها، وتوفيرًا لركن من أركان قوتها وعُدّتها في مواجهة الهجمات العدوانية الشرسة المتوالية.

إن التفريط في مبدأ الولاء والبراء واقع على نطاق واسع في الأمة، حيث تحس الميل القلبي والولاء الشعوري والسلوكي لأعداء الملة والدين عند السواد الأعظم من الناشئة والشباب، بل وعند بعض الكهول من المسلمين والمسلمات.

تجده في كثير من الألبسة والهيئات وطرائق الأكل والشرب والكلام والمشي، وغير ذلك من الأحوال والعادات التي يحاكي فيها المسلم حال من يدينون بعداوته وأذيته.

وهذا أمر سيئ الدلالة على دين المرء ودخيلة نفسه، إذ كيف نجد شعورًا من الميل نحو أعدائنا، ونحن نتأوه تحت سياطهم؟!

كيف نشهد هجمتهم الفكرية والثقافية المنظمة على ثقافتا وديننا وفكرنا، ثم تجد فينا من يُعجب بفكرهم وثقافتهم، وأظهر شيء فيها العنصرية والعُنجُهية والجنس والرجس؟!

كيف نجدهم يغزون ديارنا ويغلبوننا على بلداننا، ثم لا يمنع ذلك الواحد منا أن يكون قصارى أمله أن يجد الفرصة والمُكنة ليطير إلى بلادهم ويأنس مدة من الزمن في ربوعهم، ويساكنهم ويخالطهم ويُخالِلهم؟!

أين إذاً روح البراء من أعداء الدين، بل ألد أعداء الدين والدنيا جميعًا؟!

أين نحن يا مسلمون من نصوص القرآن الصريحة التي تنهانا عن موالاة الكافرين؟!، بل وتغرينا بعداوتهم من خلال تذكيرنا بأنهم أعداؤنا، وأعداء ربنا ورسولنا وديننا، وأنهم لا يرقبون فينا إلاً ولا ذمة، وأنهم يسخرون من ديننا ويستهزئون بصلاتنا، كالذي نقرؤه في قوله تعالى في المائدة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(57) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ (58)}.

وقوله تعالى في غرة الممتحنة: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ(1)إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ(2)}

أجل، إنَّ آيات القرآن تغرينا بعداوة من ناصبونا العداء من غير أهل ديننا، وتدعونا إلى مفارقتهم والبراءة منهم.

والقضية قد تبدو لأول وهلة قضية بدهية لا تحتاج إلى تقرير وتأكيد، واضحة لا تحتاج إلى توضيح، لأن البداهة تقتضي أن تميل عمّن يميل عنك، وأن تكره من يكرهك، وأن تقاتل من يحرص على قتلك، وأن تعادي من يجاهر بعداوتك، فكيف إذا كان يمارس العداوة في أبشع وأفظع صُوَرها ؟!

نعم، قد يُتصوَّر أن يقهر المسلم نفسه على خلاف هذا، وذلك في مرحلة ما قبل الإذن بالجهاد، وعليه تـُحمَل آيات الأمر بالصفح والإعراض، من مثل قوله تعالى في الحِجْر: { فاصفح الصفح الجميل(85)}.

قال الحافظ ابن كثير في تفسيرها: [ أمَرَه - صلى الله عليه وسلّم - بالصفح الجميل عن المشركين في أذاهم له وتكذيبهم ما جاءهم به، كقوله: { فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون }،[[64]](#footnote-65) وقال مجاهد وقتادة وغيرهما: كان هذا قبل القتال. وهو كما قالا، فإن هذه مكيَّة، والقتال إنما شرع بعد الهجرة]. [[65]](#footnote-66)

وقد يُتصور أن يقهر المسلم نفسه على خلاف ذلك، إذا كان يحتسب على ذلك الأجر، فيعطي من يَحرمه، وينصف من يَظلمه، ويحسن إلى من أساء إليه.

وإنما يُتصور ذلك إذا كان ذلك المسيء الشانئ مسلمًا، إذ قد رغـَّبك الشرع عندئذٍ في أن تدفع السيئة بالتي هي أحسن، رعاية لحق الأخوة وحرمة الإسلام ووحدة الصف والكلمة، ووعَدَك الحق سبحانه على ذلك الأجر العظيم والحظ الجسيم في الدنيا والآخرة، وذلك كما في قوله تعالى في سورة فصلت: {وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (35) }

قال القرطبي في تفسيرها: [ قال ابن عباس: أي ادفع بحلمك جهل من يجهل عليك. وعنه أيضا: هو الرجل يسب الرجل، فيقول الآخر: إن كنتَ صادقا فغفر الله لي، وإن كنتَ كاذبًا فغفر الله لك. وكذلك يُرْوى في الأثر أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال ذلك لرجل نال منه.] [[66]](#footnote-67)

ففي حمل النفس على خلاف مقتضى الطبع، وفي قهر النفس على مقابلة الإساءة بالإحسان في مثل هذه الحالة، ترغيب شرعي واحتساب أجر، وارتقاء إلى منزلة الصبر، وأنعم بها من منزلة.

فأما إذا كان المسيء عدوًا كافرًا فاجرًا غادرًا، وكان مع ذلك حاقدًا معاندًا، أفاكاً للكذب، سفاكاً لدماء المسلمين، لا يألو جهدًا في النيل من الأمة ومن دينها ومن أرضها ومن ثرواتها، فإن مقتضى البداهة والطبع والفطرة يوجب على المسلمين معاداة ذلك العدو، فكيف إذا كان هذا - قبل ذلك - هو مقتضى الشرع أيضاً ؟!.

إن الشرع الذي يأمر بالموالاة والصفح والعفو في حق المسلمين المسيئين، قد أمر بالبراءة والمعاداة والمفاصلة في حق الكافرين المعادين، فقال سبحانه في آل عمران: {لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (28) }

وقال في غرة الممتحنة - كما أسلفنا -: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ}.

فلم يَعُدْ هنالك ما يقتضي أن يحمل المسلم نفسه على خلاف مقتضى العداوة، لأن ذلك سيكون عندئذ على خلاف مقتضى الشرع والطبع جميعًا، والأصل أنه إذا جاء الشرع على وفق الطبع كان الالتزام بالشرع من أيسر اليسر.

إلا أنّ اللافت أن القرآن عندما يتناول هذه القضية، فإنه يتناولها على نحو من التأكيد والإلحاح والتكرار المشفوع بالتهديد والوعيد الشديد، مما يدل على أن هنالك من يُصِرّ على مخالفة هذه القضية البدهية، والتجاوز على هذه الحدود والأحكام الشرعية.

تـُرى، فما الباعث على ذلك؟!

**بواعث موالاة أعداء الملة.**

أجل إنه سؤال يطرح نفسه بإلحاح. ما الذي يحمل المسلم على اقتحام تلك المخالفات والتجاوزات، علمًا بأنها على خلاف مقتضى الشرع والطبع جميعًا ؟!

والجواب أنّ الباعث على ذلك أحد أمرين:

**الباعث الأول: دنيوي مصلحي.**

وهو أن يرى ذلك المسلمُ الموالي للكافرين المعادين للمؤمنين، أن له في موالاتهم مصلحة أو مصالح خاصة أو شخصية، فهو يحرص عليها، كتجارة يخشى كسادها، أو وجاهة يخشى فواتها، أو قرابة يحب صلتها، أو هوى نفس يحرص على تحقيقه، أو غير ذلك من الرغائب والأهواء والمصالح الخاصة التي يؤثرها على مصلحة الأمة والملة والدين، ولا شكّ أن ذلك يدل على خلل في الدين، يكبر أو يصغر بحسب حجم الضرر الذي تجره تلك الموالاة على الأمة والملة، لأن موالاة أهل الدين والملة، والبراءة من أعدائهم، واجب ديني صريح واضح، ليس متروكًا للأهواء الشخصية والميول التلقائية، وإنما هو لازم شرعي يتعلق بأصل الإيمان لا بفروع الأحكام، وإلا فأين نذهب بقوله تعالى في آخر المجادلة: { {لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ}.

**نماذج وأمثلة:**

وإليكم نماذج وأمثلة من أحوال الأمة، ماثلة للعيان، يراها قاصٍ ودان، تـُمَثـِّل هذا الباعث الأول على خرق مبدأ الولاء والبراء:

**المثال الأول: الاغتراب.**

أين رعاية مبدأ الولاء والبراء عندما يعمِد المسلم لإلقاء فِلـْذة كبده في أتـُّون شبهات أعداء الدين وشهواتهم ، بحجة الدراسة وإحراز الشهادات العلمية، دون تحصين ولا تأهيل؟!

ونبادر فنقول: لسنا ضد طلب العلم الذي ينفع الأمة في دينها ودنياها، ولو كان ذلك في بلاد الكفار، ولكنا نذكر بشرط ذلك، وهو: أن يكون الدارس أو المبتعث مُعَدًا ومحصناً، خلقاً وديناً وفكرًا، بحيث لا يُفتن بشبهة، ولا يَضعف أمام شهوة، بل يكون من القوة والتمكن بحيث يؤثر في الوسط الذي يحيط به، ولا يتأثر، وما أروع وأنفع أن يجعلَ الدارس المغترب من مهمته الدراسية مهمة دعوية، ويقيمَ من نفسه سفيرًا لدينه وأمته في وسطه السكني، أو وسطه العلمي في الجامعة، أو في حيه الذي يعيش فيه أو المدينة التي ينزلها، أو حيثما حل وارتحل في مدة الاغتراب، فلنعم السفير إذاً، ولنعمت السفارة.

ولقد شهدت عواصم الاغتراب ومُدُنه الكبرى وغير الكبرى، نماذجَ رائعة ناصعة من هؤلاء الدارسين الدعاة، الذين يحملون رسالة الدين وهمَّ الدعوة، والذين جعلوا من أنفسهم ملاذاً لزملائهم وبني جلدتهم، فكَونوا لهم بيئة نقية طاهرة، تجعلهم في حصن من أن ينالهم رجس ذلك المجتمع الضال الفاسد.

فأمَّا أن يُرسل الشاب إلى الدراسة في تلك البلاد المفتوحة، خالي الوفاض من الفكر، رقيق الدين، وهو في عنفوان الهوى وسَوْرة الشهوة، لينغمس في ذلك المجتمع حتى الأعماق، ويجازف بدينه وخلقه وثقافته وانتمائه وكل شيء ذي بالٍ عنده، ثم يرجع بعد ذلك - إن رجع- بالشهادة العلمية المبتغاة، إن نالها، فإنّ هذا ينطوي على مخاطر وخسائر ونتائج لا تحمد عقباها.

وحسنٌ أن يرجع الدارس وقد حقق هدفه العلمي، أو نال الشهادات العليا، ولكن السؤال الأهم: ماذا كلّفه ذلك؟

دع عنك خسارة الدراهم على كـِبَرها، ولكن انظر هل كلفته تلك الشهادة شيئاً من دينه أو فكره أو انتمائه أو خلقه وسلوكه؟

فلئن كان كذلك، فلقد استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، فهو المغبون الذي فوت النفيس لينال الخسيس، فأهونْ به من منال.

إنّ إلقاء المسلم ولده في تلك المهالك، على هذا النحو من إهمال التحصين، هو بمثابة هدية نفيسة يقدمها إلى أعدائه.

هو بمثابة سلاحك ذي الحدة والمضاء والفتك، إذا سلمته لعدوك ليشحذه على طريقته ثم يحاربك به.

فهل ترون في هذا شيئاً من تحقيق مبدأ البراء ممن أوجب الله تعالى البراء منهم؟ أم أنه خروج صارخ على هذا المبدأ، وتجاهل له من أصله؟!

وإلا فكيف نزعم أننا نتوجع من عدوان أعدائنا، ونشفق على أمتنا من حقدهم وكيدهم، في الوقت الذي نجود لهم فيه بأعز شيءٍ لدينا، وأحب شيء إلينا، وأنفس ثروة لأمتنا، وهم هؤلاء الشباب المبتعثون، وفيهم صفوة من الدارسين والمثقفين؟!

ولا يخفى على من نظر في التاريخ الفكري للمجتمع المسلم عبر القرن الماضي، أن دعاة العلمنة، ودعاة ما يسمى بالتحرر الفكري وتحرير المرأة، الذين هدّدوا بل هدّموا حصون الإسلام من داخلها، لم يكونوا من المستشرقين الغربيين، وإنما كانوا من المستغربين من أبناء الأمة، الذين تتلمذوا على المستشرقين في جامعاتهم، ثم رجعوا إلى شرقهم الإسلامي، لم يبق فيهم من شرقيتهم وإسلامهم إلا أسماؤهم.

أما فعالهم وخِلالـُهم وقلوبهم فلا تقل سوادًا عن قلوب وفعال أساتذتهم الذين فرَّغوهم من معاني وقيم دينهم - وربما كان بعضهم ذا منبت صالح ونشأة دينية - ثم شحنوهم بما يريدون، وجندوهم ليحاربوا بهم ديننا وقِـيَمنا وملتنا.

**المثال الثاني: المدارس الأجنبية.**

وصورة أخرى تعتبر خرقاً لمبدأ الولاء والبراء- بالباعث الأول- وهي صورة موجودة في المجتمع المسلم، ولو كان ذلك على مستوى بعض أفراده، بل إنها في اتساع ونمو مطّرد، بسبب التنافس المقيت في المظاهر والقشور، والتباهي بالبهرج ولو على حساب المبدأ والمنهج.

وهي صورة تؤذي قلب كل مسلم غيور، وإني لأدعو كل مسلم معني بهذه الصورة المشار إليها أن ينظر إليها بعين الدين لا بعين العاطفة، ولا بعين المصلحة العاجلة المظنونة، ولا بعين الدنيا ومفاتنها والمباهاة فيها، وإنما بعين الدين التي تؤثر الآخرة على الأولى، وتؤثر مرضاة الله على مرضاة الزوجة والولد والوسط الاجتماعي، وعلى كل زينة الدنيا ومصالحها الموهومة التي يُظن أنها مصالح.

تلكم الصورة هي صورة الأسرة المسلمة التي وهبها الله سبحانه، الذرية من البنين والبنات، وحباها أيضاً العافية في هؤلاء البنين والبنات، فجعلهم أسوياء في الخلقة والعقل، نجباء في التفكير والفهم.

وبدلاً من أن تشكر تلك الأسرة ربها على جليل هبته، فتنبت هؤلاء الأطفال نباتاً حسناً على وفق ما يحب واهبهم سبحانه من حفظ القرآن وتعلم لغته التي هي لغة الدين القويم، والتعريف بالنبي صلى الله عليه وسلم، وبسنته وسيرته وسيرة أصحابه رضي الله عنهم، والتعرف إلى تاريخ أمتهم وثقافتها وقادتها وأعلام رجالها، فإن هؤلاء الآباء والأمهات يزدرون هذا النوع من التعليم ويزهدون فيه، ويحبون أن يتميزوا ويتميز أولادهم، فيقتادونهم إلى المدارس الأجنبية.

إلى أين؟! إلى المدارس الأجنبية؟! ومنذ أول سنة في الدراسة الابتدائية! بل ويذهب بعض هؤلاء الوالدِينَ إلى أبعد من ذلك فيلحقونهم بالمدارس الأجنبية حتى في مرحلة رياض الأطفال.

وعندما تسأل: لماذا يا أخي؟ لماذا يا أيتها الأسرة المسلمة؟ لماذا تحرمون هذه النسمة المسلمة المعرفة الدينية، وتعلُّم العربية، والاطلاع على تاريخ الإسلام الذي هو دين هذا الطفل، وعلى ثقافة وحضارة المسلمين الذين هم أمته؟

ستجد الجواب: من أجل أن يُحْكِم الطفل اللغة الأجنبية، فتسهلَ عليه الدراسة في الجامعات الغربية.

يا سبحان الله! وهل الذين لم يدرسوا منذ نعومة أظفارهم في المدارس الأجنبية، عجزوا عن تعلم اللغة الأجنبية وعن البراعة فيها؟!

وهل تستحق هذه البراعة المنشودة أن يُحرم الناشئ من أجلها علم الدين، وقراءة القرآن، وغرس مبادئ الاعتقاد الصحيح، ومعرفة القدر المناسب من السنة والسيرة والأحكام الشرعية؟!

ثم لا يفوتنا أن نذكـِّر بأن الأسرة التي تسوِّغ لنفسها هذا الأمر العجيب أسرة مسلمة، أسرة ترى وتسمع بمرارة ما تفعله أمم الغرب الذين تنتمي إليهم تلك المدارس الأجنبية لغة وثقافة ورسالة، ما تفعله تلك الأمم من التنكيل بأبناء المسلمين وديارهم وثرواتهم، إن كان بشكل سافر مباشر، أو كان من خلال المؤازرة الظالمة للكيان اليهودي المجرم الذي زرعوه في المنطقة شجاً في حلق كل مسلم.

أسرٌ مسلمة، يمتعض أفرادها ويتأذون مما يرون من مذابح المسلمين على أيدي اليهود والنصارى وأشياعهم، وربما تجدهم يسألون في خلال تلك المصائب والمذابح: ترى ما موقفنا؟ وما الذي يمكن أن نعمله في نصرة أمتنا؟

ونقول لهم في الجواب: إنه ليس المطلوب منكم أن تعملوا، ولكن المطلوب أن لا تعملوا على تسهيل تنصير أولادكم منذ الصغر، المطلوب منكم أن لا تهيؤوا أولادكم فكريًا وتعليميًا للعلمانية ، بسبب الفجوة والجفوة التي يحْدثها التعليم الأجنبي بينهم وبين دينهم منذ نعومة أظفارهم.

وإذا كان الشاب الذي درس في مدارس التعليم العام حتى نهاية المرحلة الثانوية، وعرف القرآن واللغة والتاريخ الإسلامي ومحاسن الشريعة، وعرف الولاء والبراء، لا يؤمَن أن يرسَل للدراسة مغتربًا في غير بلده، إلا بتهيئة وتحصين ومتابعة، حتى ولو كان اغترابه في البلاد الإسلامية؛ فضلاً عن بلاد ليس لها حظ من دين ولا عفاف ولا قيم.

فكيف بمن يفقد حتى معنى الانتماء؟!، وهو ذلك الطفل الذي ألِفَ معاشرة من ليسوا من ملته ولا من ثقافته، من المعلمين والمعلمات، والطلاب والطالبات، حتى أصبح يستوحش ممن سواهم ولو كانوا من أبناء ملته وجلدته، وهل هناك صورة أبلغ في تنشئة الأطفال على موالاة أعداء الدين أبلغ من هذه الصورة؟

**المثال الثالث: عالَم المال.**

ما أكثر ما يوالي المسلمون - مِن حيث يشعرون أو لا يشعرون - مَن أوجب الله معاداتهم والبراءة منهم، مِن الذين يقاتلون المسلمين في الدين، ويخرجونهم من ديارهم، ولا يألونهم خبالاً!، ما أكثر ما يتجاوز المسلمون هذا المبدأ في مجالي المال والأعمال!

فأما في مجال المال، فأين فائض أموال رجال المال والأعمال، التي حباهم الله إياها وتفضل عليهم بها؟!

لماذا تكون وجهتها دائمًا بلاد الغرب، إلى أيدي وخزائن أساطين العداوة على الدين والأمة والثروة؟!

لقد كشفت الأحداث الهائلة، العسكرية والأمنية التي هزّت استقرار الغرب وأمنه، والأزمة المالية الكارثية التي أعقبت ذلك، كشفت عن حقائق مذهلة ومحزنة ومحبطة، عن حجم الأموال الإسلامية المستثمرة في بلاد أعداء الإسلام، والتي بها تدار عجلة اقتصادهم ومصانعهم ورفاهيتهم.

ويَحزن المسلمُ حقاً ويكتئب، وهو يسمع عن آلاف المليارات من أموال المسلمين أفرادًا ومؤسسات ودولاً، التي تستوطن بلاد الغرب، وتـُحرَم منها ومن عوائدها الأمة، وهي أحوج ما تكون إليها.

وإن الباحث المتتبع لإحصاءات وأرقام أموال المسلمين في الدول الغربية ليصل إلى قناعة جازمة بأن كل ما نراه في الغرب من تقنية الصناعة، وتقنية القوة، وتقنية الخدمات، والبراعة في العمران، وغير ذلك مما يبهر الناظرين إنما هو حسن إدارتهم واستثمارهم لتلك الأموال الطائلة الهائلة من أموال المسلمين التي تتدفق إلى بنوكهم طواعية أو شبه طواعية.

إن حضارة الغرب اليوم هي - في جانب كبير منها - ثمرة التقاء الأموال الإسلامية والخامات والثروات الإسلامية، مع العقلية العلمية الغربية؛ بل أقول بعبارة أدق: مع العقلية العلمية التي تستوطن الغرب.

ولو كان المسلمون شركاء في المنافع كما كانوا شركاء في الخامات والتمويل، لو كانوا شركاء في المغنم كما أنهم شركاء في المغرم لهان الخطب، وكان لهم في ذلك عزاء.

فأما أن يشترك المسلمون بهذا الشكل الفعال والمؤثر في الحضارة الغربية، ثم يستقل الشركاء الغربيون بجني منافعها والتباهي بروائعها، وينفرد الشركاء المسلمون بدفع ضريبتها، وتحمل مساوئها وتبعاتها، فهذا إجحاف.

أن يكون نصيب الغرب من القوة النووية بناء مفاعلاتها والاستئثار بطاقاتها، ويكون نصيب المسلمين دفن نفاياتها في أحشاء أرضهم وديارهم، فهذا افتئات لا يرضى به من كان عنده أدنى قدر من أنفة أو كرامة.

أن يشترك المسلمون بالأموال التي لا تقدر بعدد، والخامات التي لا تقدر بثمن، في تقنية القوة وإنتاج السلاح وغزو الفضاء، ثم ينفرد الشركاء الغربيون بحق امتلاك السلاح واستخدامه ضد مَن شاؤوا مِن إخواننا، وإمدادِ مَن شاؤوا مِن أعدائنا، وينفرد الشركاء المسلمون بدفع ضريبة ذلك من دمائهم وأوطانهم وأمنهم وأقواتهم، فهذا ظلم وإجحاف وقهر وعدوان، يشترك فيه كل من يودع قرشاً في البنوك الغربية، أو يستثمر قرشاً في الصناعات والاستثمارات الغربية، أو يشارك بقليل أو كثير، في نمو اقتصاد أولئك الظلمة المجرمين.

فهل آن للمسلمين أن يدركوا خطر الموالاة بالأموال لمن أمر الله تعالى بالبراءة منهم؟

ألم يأن لأرباب الأموال المسلمين أن يستردوا أموالهم إلى أوطانهم، ويستثمروها في تنمية أمتهم وقوة ملتهم ونفع إخوتهم، ويَحْرموا منها أعداء دينهم ودنياهم؟ .

ولهم على كل فعل طيب من ذلك، بل وعلى كل نية، أجر وخير في الدنيا والآخرة.

**المثال الرابع: عالَم الأعمال.**

وأما في مجال الأعمال، فإن هنالك أيضاً صُوَرًا مرفوضة من صور الموالاة للكافرين على حساب المسلمين، وذلك عندما يَعْمِد رجل الأعمال المسلم لاستقطاب العمال أو الموظفين أو السائقين، فلا يكترث أن يكون ذلك العامل أو الموظف مسلمًا أو غير مسلم، بل ربما حَرَصَ أن يكونوا من غير المسلمين.

ولو كان ذلك من أجل الكفاءة والاختصاص، فالأمر يقدر بقدره، ولكن عندما يكون الأمر لا يتطلب شيئاً من المؤهلات ولا التخصص، ثم يفضل غير المسلم على المسلم، ففي ذلك ما فيه من حرمان المسلمين من فرص العمل، على ما هم عليه من العوز وعظيم الفاقة في كثير من الأقاليم والبلدان، بالإضافة إلى ما في ذلك من ائتمان غير الأمين، وتقريب من أمر الله بإبعاده، وقطع من أمر الله به أن يوصل.

وإنه لتناقض عجيب عندما يستعلن المسلم ببغض وذم الكفار وهم وراء البحار، في الوقت الذي نجده يقربهم في شؤون حياته ويدنيهم حتى ليكاد يجعلهم بين ثوبه وبدنه، ففي مكتبه الموظف الكافر، وفي متجره العامل الكافر، وفي سيارته السائق الكافر، وفي منزله الخادم الكافر والخادمة الكافرة.

واستطرادًا على ذكر الخادمة المنزلية أقول: أحب أن لا تفهم الدعوة إلى استبدال الخادمة المسلمة بالكافرة، على أنها إقرار بشرعية وجود الخادمة المسلمة في منزل المسلم وليس معها زوج ولا محرم.

معاذ الله؛ ولكننا ندعو إلى الاستغناء عن الخادمة أصلاً ما أمكن السبيل إلى ذلك، فإن كان ولا بد فإن الشرع الحنيف يشترط أن تكون بصحبة زوجها أو ذي محرمها، إن كان في سفرها من بلدها وإليها، أو في إقامتها في بيت مخدومها، وذلك حتى لا تتحول تلك الظاهرة الاجتماعية التي هي من إفرازات حياة الرفاهية واليسار، إلى ثغرة أخلاقية واسعة الخرق بعيدة الغور، ولكنها مستورة بملاءة اسمها: خادمة. والله لا تخفى عليه من الخلائق خافية، كيف وهو القائل: { أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلامُ الْغُيُوبِ} التوبة:78

والقائل: { يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} غافر:19

والقائل: { عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (9) سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَار(10)} الرعد10 .

إذاً، فمطلوب من كل مسلم، ومن صاحب العمل بوجه خاص، أن يكون له موقف ولاء لأمته، موقف له فيه نية صالحة وأجر عظيم، وهو أن يستبدل بهؤلاء العمال والموظفين، غيرهم من المسلمين الأكفاء.

ولا يقولن قائل: صحيح أن هذا العامل كافر، ولكنه بوذي أو سيخي لا علاقة له باليهودية ولا النصرانية. أو وثني لا علاقة له بالأديان السماوية. أو كافر شرقي لا علاقة له بكفار الغرب. أو أفريقي لا علاقة له بالمعتدين علينا من الأوربيين والأمريكيين.

فنقول: إن الكفر في مواجهة الإسلام وأهله ملة واحدة، ولو أجرينا نظرة سريعة على أحداث العالم في هذه العقود القليلة المتأخرة لرأينا مصداق ذلك في كشمير والفلبين ونيجيريا والصومال وغيرها، وما مسجد البابري عن أذهاننا ببعيد.

والله سبحانه يقول في آل عمران: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (118)}

قال القرطبي عند تفسير هذه الآية: نهى الله عز وجل المؤمنين بهذه الآية أن يتخذوا من الكفار واليهود وأهل الأهواء، دُخلاء ووُلجاء، يفاوضونهم في الآراء، ويسندون إليهم أمورهم.

وقال القرطبي أيضاً: قدم أبو موسى الأشعري على عمر رضي الله عنهما بحساب - وكان واليًا له على البصرة - فرفعه إلى عمر فأعجبه، وجاء عمرَ كتابٌ، فقال لأبي موسى: أين كاتبك يقرأ هذا الكتاب على الناس؟ فقال: إنه لا يدخل المسجد. فقال لم؟! أجنب هو؟ قال: إنه نصراني. فانتهره عمر وقال: لا تـُدْنِهم وقد أقصاهم الله، ولا تكرمهم وقد أهانهم الله، ولا تأمنهم وقد خوّنهم الله.

واحتج عمر على أبي موسى بهذه الآية من آل عمران: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً}.[[67]](#footnote-68)

هذا مع العلم أن كاتب أبي موسى لم يكن أجيرًا، وإنما كان غلامًا مملوكاً.

**المثال الخامس:التجارة.**

معلوم أن التجارة من أشرف المكاسب وأحلها، إذا كانت عن تراض، واجتـُنِبتْ فيها محاذير الربا والغرر والغش والخديعة وغيرها من المخالفات الشرعية، وأن التبادل التجاري جائز مع الكفار غير المحاربين.

فأما الكفار المحاربون، فإن في الاتجار معهم ما فيه من الترويج لتجاراتهم وبضائعهم بين المسلمين، وتنمية اقتصادهم وقدراتهم المالية، التي تساند مجهودهم العسكري الذي يعيث خرابًا ودمارًا في بلاد المسلمين، وقتلاً وترويعًا للرجال والنساء والأطفال المستهدفين بتلك الحرب، ومن المقرر في الفقه الإسلامي أنه لا ينبغي بيع السلاح زمن الفتنة، حتى لا يكون عوناً للمتقاتلين على الإثم والعدوان.

قال ابن القيم في كتابه: [ إعلام الموقعين]:

قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ: (نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ بَيْعِ السِّلاحِ فِي الْفِتْنَةِ.)، وَلا رَيْبَ أَنَّ هَذَا سَد لِذَرِيعَةِ الإِعَانَةِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ. [[68]](#footnote-69)

أقول: هذا في الفتنة بين المسلمين، فهل يُعقل أن يعمل المسلم على مساندة حرب الكفار على المسلمين بذريعة التجارة؟!

ولو كان المستهدفون بالحرب الظالمة من غير المسلمين، لما جاز مساندة الظالمين على المظلومين، لأن الله تعالى يقول: { وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} المائدة:2

فكيف وضحايا الحرب هم إخواننا في الملة وأخواتنا، وبلادهم وذراريهم ومساكنهم؟!

قال السيوطي رحمه الله في كتابه [ الأشباه والنظائر]:

قَاعِدَةٌ: قَالَ الشَّيْخُ أَبُو حَامِدٍ وَغَيْرُهُ : لا يَجُوزُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَدْفَعَ مَالاً إلَى الْكُفَّارِ الْمُحَارِبِينَ، إلا فِي صُوَرِ: إذَا أَحَاطَ الْعَدُوُّ بِالْمُسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، وَلا طَاقَةَ لَهُمْ بِهِ .

وَإِذَا كَانَ فِي أَيْدِيهمْ أَسْرَى مِنْ الْمُسْلِمِينَ ، يَجِبُ افْتِدَاؤُهُمْ .

وَإِذَا جَاءَتْ امْرَأَةٌ مُسْلِمَةٌ فِي زَمَنِ الْهُدْنَةِ، وَجَبَ دَفْعُ مَهْرٍ إلَى زَوْجهَا ، فِي قَوْلٍ ضَعِيفٍ .[[69]](#footnote-70)

فاتق الله أيها التاجر المسلم، ولا يغلبنك حب المال والاستكثار من أرباحه، على دِينك وبصيرتك ومبادئك.

وتعففْ عن الكسب الحرام ولو كان وفيرًا، إشفاقًاً على نفسك من تبعته.

وثِقْ بأنَّ الله تعالى يعوضك عما تعففت عنه ما هو أوفر كمًا وأعظم بركة، مصداق الحديث الذي يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم:

( إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلا بَدَّلَكَ اللَّهُ بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ) [[70]](#footnote-71)

واعلم أيها التاجر المسلم أن الله تعالى قد يبتلي العبد بمثل هذه المطامع ليبلو دينه، ويظهر مكنونه، هل هو ممن يؤثر المطامع على المبادئ؟

أم ممن يؤثر المبادئ ولو على حساب التخلي عن النفس والنفيس من حلال المال، فضلاً عن حرامه وسُحته.

وعندما حرَّم الله تعالى دخول المشركين مكة والحرم، في السنة التاسعة من الهجرة، خاف من خاف من المسلمين من تبعات ذلك على الشأن الاقتصادي، لأن حضور المشركين يحرك ويثري الأسواق التجارية التي تقام في الموسم، ومنعهم يفضي إلى ضعف الحركة التجارية وقلة الأرباح.

فعالج الحق سبحانه هذه الهواجس والمخاوف، بالتذكير بقناعة إيمانية لا شك فيها ولا ريب، وهي أن الرزق من عند الله وحده سبحانه، لا من تجارات الكافرين، ولا من تبادل السلع التجارية مع المعتدين الظالمين، فأنزل سبحانه يقول: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [التوبة : 28].

فيا ليت وزراء السياحة في الدول الإسلامية يتذكرون هذه الحقيقة، ويُخضعون سياستهم وإدارتهم لهذه الآية المحكمة، إذاً لما آثروا صناعة وتنمية السياحة الداعرة الفاجرة طمعًا في عوائدها الاقتصادية. وتبًا لها من عوائد.

فلا يتهاوننَّ المسلم بهذه الصور من الولاء لمن أوجب الله منهم البراء، بدعوى أنه مطمئن القلب بالإيمان ولكنها مطامع تغلبه عليها النفس، فإن الأمر خطير، خصوصًا في هذه الأعصار العصيبة التي تحتاج فيها الأمة إلى مؤازرة كل أبنائها، والتخلي عن كل صور الموالاة لأعدائها.

**المثال السادس: مثال من السيرة.**

وهذا مثال تاريخي من وقائع السيرة النبوية، على الولاء للأعداء بباعث المنفعة الضيقة، والمكاسب الشخصية على حساب المصلحة الملية العظمى.

مثال فيه مزدجر لكل مسلم عن التساهل ولو بأقل القليل من موالاة من حادّ الله ورسوله، فإن قليل الموالاة كثير.

لقد بدر من صحابي يومًا موالاة بإشارة لصالح اليهود.

إشارة، ليست عبارة، ولا مؤازرة بالمال والعتاد، ولا إمدادًا بالغذاء والسلاح، ولكنها إشارة في لحظة ضعف بشري، ورحمةٍ وُضِعتْ في غير موضعها، عدَّها ذلك الصحابي من نفسه خيانة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

فكيف بمن يواليهم بالتبادل التجاري والتعاون الاقتصادي والموقف السياسي، ومحاولة تذويب العداوة الشرعية لأعداء الدين، المجرمين في حق الملة والأمة، عن طريق ما يعرف بالتطبيع؟؟!!

كانت تلك الإشارة من الصحابي الأنصاري أبي لبابة بن عبد المنذر رضي الله عنه، وذلك في السنة الخامسة من الهجرة، في حصار المسلمين ليهود بني قريظة، الذين غدروا ونقضوا العهد حين أعلنوا مؤازرة المشركين يوم الأحزاب على المسلمين ... ثم كان ما كان من خدعة نـُعيم بن مسعود رضي الله عنه، وسعايته بين المشركين المعسكِرين وراء الخندق، وبين بني قريظة، مما أوقع الخـُلف بين قلوبهم، وأساء كل فريق ظنه بحليفه، حتى جاءت الريح فأجْلت الأحزاب عن مواقعهم، ويمموا بلدانهم لا يلوون على شيء، ليفرُغ النبي صلى الله عليه وسلم لبني قريظة الذين كان لا بد من تأديبهم والتأديب بهم، ليروا عاقبة غدرهم وخيانتهم، كما قال سبحانه في الأحزاب: { وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا(25)وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا(26)}.

ضرب النبي صلى الله عليه وسلم الحصار على بني قريظة وهم في حصنهم المنيع، ولكن لا يمتنع على الله منيع. { وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ} [الرعد:11]

ولما طال على بني قريظة الحصار، قلَّبوا وجوه الأمر، فوجدوا أن الأسلم لهم أن ينزلوا من حصنهم مستأسرين للنبي صلى الله عليه وسلم، ليحكم فيهم حكمه.

ولكنهم أحبوا أن يعرفوا حكمه صلى الله عليه وسلم، قبل أن ينزلوا، فأبى عليهم إلا أن ينزلوا ثم يحكم فيهم حكمه، أو يواجهوا الحصار وعواقبه.

فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يرسل إليهم رجلاً من أصحابه

هو أبو لبابة بن عبد المنذر ليستشيروه في أمرهم، وكان أبو لبابة من حلفائهم من الأوس في الجاهلية، وكانت أمواله وولده بناحيتهم.

فأتاهم أبو لبابة، فلما رأوه قام إليه الرجال، وأسرع النساء والصبيان إليه يبكون، مما أثار فيه رقة خادعة في غير موضعها، وقالوا له: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟ فقال: نعم. وأشار بيده إلى حلقه، يعني أنهم مذبوحون.

ثم علم من فوره أنه خان الله ورسوله، فمضى على وجهه ولم يرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى أتى المدينة فدخل المسجد وربط نفسه بسارية من سواريه، وحلف أنه لا يَحُل نفسه حتى يحله رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه لن يدخل أرض بني قريظة بعد اليوم أبدًا.

واستبطأ النبي صلى الله عليه وسلم عودته، فلما أُخبر خبرَه قال: أما إنه لو جاءني لاستغفرت له، أمَّا إنه قد فعل ما فعل فما أنا بالذي يطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه.

ولقد كان لإشارة أبي لبابة أثرها في تردد اليهود في الاستسلام، وقد كان المسلمون على وشك أن يرتاحوا من طول الحصار، فلما عادوا إلى التحصن قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فنادى: يا كتيبة الإيمان، والله لأذوقن ما ذاق حمزة أو لأفتحن حصنهم.

فقذف الله الرعب في قلوبهم، فبادروا بالاستسلام، وألقوا أيديهم في القيود طائعين ينتظرون حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم.

وقام رجال من الأوس الذين كانوا حلفاء بني قريظة في الجاهلية يكلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في أن يعاقبهم بغير القتل، أسوة بما فعل ببني قينقاع عندما كلمه فيهم حلفاؤهم من الخزرج.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا بلى. قال فذاك إلى سعد بن معاذ.

قالوا: قد رضينا.

وانظروا وقارنوا بين موقف سيد الأوس سعد بن معاذ، الذي اهتز لموته عرش الرحمن، وبين موقف أبي لبابة المتقدم، رضي الله عن كل منهما.

أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد بن معاذ، وكان في المدينة مريضاً بالجرح الذي أصابه به المشركون في حصار الخندق، فأركِب على حمار، وجيء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأحاط به قومه الأوس من جانبيه، وهو على حماره وهم يقولون:

يا سعد أجمل في مواليك، يا سعد أحسن فيهم، يا سعد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حكَّمك فيهم لتحسن إليهم.

وسعد رضي الله عنه ساكت لا يرجع إليهم شيئا، فلما أكثروا عليه أجابهم بكلمة تجسد كل ما صنفه العلماء ودبجه الخطباء من عقيدة الولاء والبراء، قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم .

سيقول سعد ما يمليه عليه ولاؤه لله ورسوله ودينه، وعَداؤه لأعداء الله ورسوله ودينه، لا يأبه في ذلك لملامة قرابة ولا مجتمع، ولا شرعة دولية ولا منظمات حقوق إنسان، ولا يخشى في ذلك ما يسمونه حكم التاريخ ولا شهادة التاريخ، وإنما هو الولاء والبراء في الله ولله سبحانه، على أصل من الدين متين.

فلما انتهى سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: يا سعد، إن هؤلاء القوم نزلوا على حكمك.

قال سعد: وإنَّ حكمي نافذ عليهم؟ قالوا: نعم. قال: وعلى المسلمين؟ قالوا: نعم. قال: وعلى مَنْ هاهنا؟ - وأعرض بوجهه، وأشار إلى الناحية التي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم إجلالاً وتعظيمًا له - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم وعليَّ.

فقال سعد: فإني أحكم فيهم أن يُقتل الرجال، وتـُسبى الذرية، وتقسم الأموال.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَحُكْمِ رَسُولِهِ. صلى الله عليه وسلم.

ونفذ حكم سعد في يهود بني قريظة، جزاءً وفاقاً لغدرهم ونكثهم وخيانتهم، فقـُتل رجالهم في يوم واحد، وهم بين الستمائة إلى السبعمائة، وسُبيت ذراريهم وقسمت أموالهم.

هكذا يكون الولاء تحقيقاً وواقعاً على الصفة التي مدحها الله في قوله سبحانه: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (54) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (55) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (56) } [المائدة].

هذا، وأما أبو لبابة رضي الله عنه، فأقام مرتبطاً بسارية المسجد ست ليال، تأتيه امرأته في كل وقت صلاة فتحله للصلاة ثم يعود فيرتبط، حتى نزلت توبته على النبي صلى الله عليه وسلم سَحَراً وهو في بيت أم سلمة رضي الله عنها.

فقامت أم سلمة رضي الله عنها على باب حجرتها ونادت: يا أبا لبابة، أبشر فقد تاب الله عليك، فثار الناس ليطلقوه، فأبى أن يطلقه أحد إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صلاة الصبح أطلقه، بعد أن جعل أبو لبابة من نفسه درساً وعبرة لكل مسلم في أن لا يتساهل في موالاة أعداء الدين في قليل ولا كثير، ولا عبارة ولا إشارة. فرضي الله عنه وأرضاه.

كل هذا والباعث على هذه الموالاة المذكورة آنفاً شهوات لا شبهات، ومطامع ومنافع دنيوية متوهمة، لا زيغ قلبي ولا نفاق اعتقادي.

وقبل أن نتحدث عن الباعث الثاني وهو الأخطر والأنكر، فإننا نحاول التعرف على كيفية تعامل القرآن مع الباعث الأول، وكيف عالجه؟ .

**علاج القرآن لهذا الباعث:**

وقد عالج القرآن الكريم هذا النوع من موالاة الكافرين، أو هذا الباعث على موالاتهم، في غير موضع من سُوَره، على نحو من التوبيخ على هذه الموالاة، والتسفيه لها، والتضليل بسببها، والوعيد الشديد عليها، كالذي نقرؤه في قول الله عز وجل في التوبة:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (23) قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (24)}.

ولم يكن المخاطبون بهذا منافقين ولا شاكِّين، وإنما كانوا مؤمنين، بدليل خطابهم بالإيمان في أولى الآيتين، ولكنهم لما وجدوا أن الإيمان يقتضيهم أن يهاجروا، رعاية لمصلحة العقيدة والدعوة والجماعة المؤمنة، رأوا أنَّ الهجرة تكلفهم فراق أهليهم، والنأي عن ديارهم وأوطانهم، وخسارة أموالهم وأمتعتهم، وفوات مصالحهم الدنيوية.

فجاء القرآن يحذرهم أن يؤثروا مصلحة دنياهم وأرزاقهم وأهليهم على مصلحة دينهم وأمتهم.

فكانت الهجرة تجسيدٍا لمبدأ البراء والمفاصلة بين المؤمنين وبين أعداء الدين، ليس في الدين فحسب، بل حتى في المحبة والمعايشة والمساكنة في الدور والأوطان.

وفي مناسبة أخرى، وفي خلال تكوين البُنـْية الإيمانية والسلوكية للمؤمنين عَبْر عُمُر الوحي، جاء التحذيرُ من تقديم المسلم مصالحه الخاصة على المصلحة العامة لأمته ودينه، بل والتحريضُ على معاداة ومجافاة أعداء الملة، ومكافأتهم بنحو صنيعهم، وذلك في قوله سبحانه في مطلع الممتحنة:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (1) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (2) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (3)}.

وفي الآيات كما هو واضح، عتاب شديد ونهي أكيد عن موالاة أعدائنا، ولهجة قوية صارمة، تدعونا بإلحاح إلى أن نتقرب إلى الله تعالى بمعاداة الكافرين الذين يعادوننا، بأن نبغضهم بقلوبنا، وندفع ونقاوم عداوتهم بقوتنا وعُدتنا.

جاء في الصحيحين في سبب نزول صدر سورة الممتحنة، أن الصحابي البدري حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه، لما أحس بأن النبي صلى الله عليه وسلم يريد أن يغزو مكة غزوة الفتح، كتب في السر كتابًا أرسله إلى أهل مكة مع امرأة من أهل مكة كانت خارجة إليها من المدينة، فجاء الوحي يخبر النبي صلى الله عليه وسلم بخبر كتاب حاطب.

وهذا أحد ألفاظ البخاري، عن علي رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد، فقال: ( انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها ). قال: فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا لها: أخرجي الكتاب. قالت: ما معي كتاب. فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب. قال: فأخرجته من عقاصها، فأتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ( يا حاطب ما هذا ؟). قال: يا رسول الله لا تعجل عليّ، إني كنت امرأً ملصقاً في قريش- يقول: كنت حليفا- ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدًا يحمون بها قرابتي، ولم أفعله ارتدادًا عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ( أما إنه قد صدقكم ). فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ( إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله قد اطلع على من شهد بدرًا فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ). فأنزل الله السورة:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ - إلى قوله: - فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ }.[[71]](#footnote-72)

وانظروا إلى هذا الزجر والوعيد على تلك الموالاة، بقوله: { ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل}، هذا مع أن حاطبًا رضي الله عنه لم يفعل ذلك بباعث كفر ولا نفاق، كما شهد له النبي صلى الله عليه وسلم بقوله في الحديث المتقدم: ( أما إنه قد صدقكم ). بل قد شهد له الحق سبحانه حين صدر الخطاب بلفظ الإيمان، فقال: { يا أيها الذين آمنوا}.

قال القرطبي في تفسيرها: وذُكر أن حاطبًا لما سمع { يا أيها الذين آمنوا } غشي عليه من الفرح بخطاب الإيمان. اهـ.[[72]](#footnote-73)

وإنما فعله حاطب من أجل مصلحة خاصة رآها فحسبْ، وليس وراء تلك المصلحة المظنونة شيء من مَيْل ولا مودة حقيقية، وذلك أنّ الله تعالى قال: { تلقون إليهم بالمودة}، أي بالظاهر، يعني أنّ ظاهر ما في كتاب حاطب يوهم المشركين أنه يوادّهم، وأما حقيقة ما في قلبه فلا.

وذلك أنّ الله تعالى لم يقل:[ توادّونهم]، وإنما قال:{ تلقون إليهم بالمودة} قال القرطبي في تفسيرها: يعني بالظاهر، لأن قلب حاطب كان سليمًا بدليل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم: ( أما صاحبكم فقد صدق ) وهذا نص في سلامة فؤاده وخلوص اعتقاده. اهـ.[[73]](#footnote-74)

بل قد أورد بعض المفسرين أن نص كتاب حاطب رضي الله عنه:

[ أما بعد، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه إليكم بجيش كالليل، يسير كالسيل، وأقسم بالله لو لم يَسِرْ إليكم إلا وحده لأظفره الله بكم وأنجز له موعده فيكم، فإن الله وليه وناصره].[[74]](#footnote-75)

أقول: فإذا كان كل هذا التأنيب والوعيد على فعل حاطب،مع حسن نيته وصلاح طويته وعلو رتبته، لأنه من البدريين، فكيف بمن يفعل مثل ذلك وأكثر، ولكن ليس بباعث منفعة دنيوية فحسب، ولكن بسبب فساد الطوية وخبث النية، وإضمار الكراهية للدين والأمة، وإضمار المودة لكل عدو لله ورسوله ودينه. وهو موضوع العنوان التالي:

**الباعث الثاني**: **قلبيٌ عقديٌ**.

وذلكبأن تكون مودة الكافرين وموالاتهم ومناصرتهم على المسلمين ناشئة عن بغض للحق وأهله، يفضي بصاحبه إلى كراهية الإسلام وإلى السرور بانكسار وانحسار المسلمين، والامتعاض والغيظ من ظهورهم وانتصارهم.

ولا شك أن هذا الباعث شر من الموالاة المنكورة بالباعث الأول.

وهلم فلنتناول ذلك من خلال النقاط الآتية:

**أولاً: حكمه:**

الأخطر في هذا الباعث أنه يكون ناشئاً عن ردة صريحة، أو عن نفاق اعتقادي مستحكم في القلب، يُسره صاحبه ويكتمه، ولكن دلائله تبدو بين الحين والحين على فلتات اللسان أو قسمات الوجه، أو في القرارات والمواقف.

وهذه أيضاً ردة، وإن لم تكن معلنة.

وقد ظهر هذا النوع من الولاء الخطير أول ما ظهر، من المنافقين في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، الذين ضاقت صدورهم ذرعاً بالإسلام، وضعفت قوتهم عن المجاهرة بذلك، خوفاً منهم على دمائهم أن تهدر، وعلى أموالهم أن تغنم، إن هم استعلنوا بالوقوف في صف قريش وأعوانها ممن حاربوا النبي صلى الله عليه وسلم وناصبوه العَداء.

فما كان منهم إلا أن أظهروا إسلامًا يستظلون بمظلته، ويعصمون به دماءهم وأموالهم، ويحلفون على ذلك الأيمان الكاذبة في العلن، في الوقت الذي كانوا فيه يبنون في الخفاء جبهة داخلية وقوة خفية تصد الناس عن الحق بالتلبيس وبث التشكيك والتثبيط وإثارة الشبهات، وتنسق سراً مع كل عدو للمسلمين، إن كان من أهل الشرك في مكة، أو من اليهود في المدينة، أو من النصارى في الشام، يستعدُونهم على الإسلام، ويُغرونهم بغزو المدينة واستئصال شأفة الإسلام منها، ويَعِدونهم الموالاة والإمداد بالمال والرجال والعتاد.

وما فتئت تلك الطائفة المنافقة الضالة المضلة تدبر الكيد والمكر في الخفاء، وتوجه إلى الأمة الإيذاء تلو الإيذاء كلما سنحت الفرصة.

فمرة بإغراء العداوة والبغضاء فيما بين المهاجرين والأنصار، ومرة باستهداف حياة النبي صلى الله عليه وسلم، ومرة بخذلان المسلمين في أحرج الساعات والمواقف حين ينسحبون من الصف ويتولون يوم الزحف، ومرة، بل مراراً بموالاة أعداء الأمة، وتحريض أولئك الأعداء على الفتك بالمسلمين مع الوعد بالنصرة، والدلالة على الثغرة والعورة، يبتغون بذلك برد أكبادهم وشفاء غيظهم من النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ودعوته التي غدت شجىً في حلوقهم ومِرجلاً يغلي في صدورهم، وكم قد هموا بما لم ينالوا.

وحسبك هذا دليلاً على كفر من كان هذا شأنه.

أجل إنه الكفر الصريح، فمن كان يظن أنه يستطيع أن يجمع بين الإسلام وبين كره المسلمين وكره دينهم، وموالاة عدوهم عليهم، فهو في الحقيقة يريد أن يجمع بين كفر وإيمان، وهو محال ، لأنهما نقيضان، والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان، فإما كفر وإما إيمان.

ومن كان يحرص على أن يُعد من جماعة المؤمنين، فليتحرر من تلك المشاعر المعادية للأمة ودينها، والموالية لأعدائها وظالميها، فإن تلك المشاعر لا تجتمع مع الإيمان في قلب واحد.

وأما من كان أحرص على شفاء غيظه وحقده على المسلمين أو بعضهم، بموالاة عدوهم عليهم ظلماً وعدواناً، غير آبه بحق الدين وحق الأخوة فيه وحق الموالاة بين المسلمين، فقد حكم على نفسه بمفارقة الجماعة، ونزع نفسه من الملة أو كاد.

ولسنا إذ نقرر ذلك مغالين ولا متطرفين ولا متشددين، وإنما نقرر ما قرره القرآن بصريح البيان، وواضح الإشارة وصريح العبارة، من كـُفـْر الذين يوالون غير المسلمين هذه الموالاة على طريقة المنافقين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

وهلم فلننظر في أدلة هذا الحكم من خلال الفقرة التالية.

**ثانياً: الاستدلال على الحكم:**

لقد قرر القرآن وكرر أن الموالاة لا تبذل من المسلم إلا للمسلم، وأما غير المسلم فلا موالاة بينه وبين المسلمين بحال، وهذا من مسلّمات الدين كما أنه من بدائه العقول، لأن موالاة الفريقين جمع بين النقيضين، لا يقره العقل، ولا يقبله النقل.

ولذلك فقد كثر في القرآن، الوعيد والتشنيع على موالاة غير المسلمين، والتصريح أو التلميح إلى كفر من يفعل ذلك، في كل من سورة النساء والأنفال والتوبة والعنكبوت والمجادلة والحشر والممتحنة والمائدة وغيرهن.

قال تعالى في النساء: { بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (138) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (139)}

وقال فيها أيضاً: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (144)}

وقال في الأنفال: { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ...( 72)

وقال فيها أيضاً: { وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (73)}

وقال في التوبة: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (23)}}.

وقال فيها أيضاً: { وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71)}

وقال في العنكبوت: { مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (42) وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ (43) }  
وقال في المجادلة: { لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (22)}

وقال في الحشر: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (11)}

ثم ضرب لهؤلاء المنافقين وأوليائهم من الكافرين مثلا سيئاً فقال في نفس السورة: { كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (16) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (17)}

وقال في المائدة: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (51) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (52) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (53) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (54) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (55) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (56)}

ولأن هذه الآيات من المائدة من أطول الآيات في هذا الموضوع، وأكثرها بسطاً وتفصيلاً لهذه القضية، فإننا نحب أن نقف عندها لنرى دلالتها على كفر من والى غير المسلمين، وذلك من وجوه:

**الأول**: في صريح قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ}. فإنها صريحة في أن تلك الموالاة المحظورة نقلت صاحبها من هؤلاء إلى هؤلاء.

**الثاني**: في قوله تعالى: { فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ}. يعني في موالاتهم. ومرض القلوب المشار إليه هو مرض النفاق، والنفاق القلبي كفر لا شك فيه. كيف لا وقد قال الله سبحانه عن أهله: { وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ} [التوبة : 68]

بل إن المنافق المستتر بإيمان مزعوم، شر على أهل الإسلام من الكافر المجاهر، ولذلك كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار، لأنهم جمعوا بين سيئتين، الكفر والنفاق.

**الثالث**: في قوله تعالى: { حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ} وإحباط جميع الأعمال الصالحة إنما يكون بالخروج من الملة وبطلان الإيمان، كما قال تعالى: { وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [المائدة : 5]

وقال تعالى: { وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام : 88]

فلما دلت الآية على أن موالاة غير المؤمنين التي يسارع إليها المنافقون، تحبط الأعمال، علمنا بأن ذلك النفاق وتلك الموالاة لاحقان بحكم الكفر.

**الرابع**: أنه سبحانه أتبع آيات النهي عن موالاة أعداء الله والتحذير منها، بالتحذير من الردة، مما يشير إلى أن تلك الموالاة إذا وقعت من المسلم كانت ردة محبطة للعمل، فقال سبحانه: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ .... } ثم شرع سبحانه في بيان صفات أولئك القوم الذين يحبهم ويحبونه، فإذا هي تحقيق لمبدأ الولاء والبراء. {..... فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ .....}.

وواضح أن ذكر الردة في مقابلة الموالاة لله ورسوله والمؤمنين، يعتبر إشارة جلية إلى أن في التفريط في مبدأ الولاء والبراء من الخطورة ما يبلغ بصاحبه حد الردة . والعياذ بالله من ذلك.

**ثالثاً: وقائع ومقارنات:**

لقد كثر في القرآن تقرير قضية الولاء والبراء، والتحذير من موالاة الكافرين وخِذلان المؤمنين، ومن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين تحت طائلة الحكم بالردة والخروج من الملة، مما رسّخ في نفوس المؤمنين أن القضية من مسائل الاعتقاد وليست من فروع الأحكام، وأن المغامرة في مخالفتها مجازفة في الدين من أصله.

وماذا بقي من الدين لمن خذل المؤمنين في مواجهة المسلمين، بل والى الكافرين المعتدين في قتال المسلمين، فضم سيفه إلى سيوفهم، ونبله إلى نبالهم ليرموا أمة الإسلام عن قوس واحدة؟!

ولسنا - إذ نقول ذلك - نسقط هذه الأحكام من الردة والتكفير على أحد بعينه. معاذ الله. ولكننا نقرر أحكاماً وقواعد عامة، يَعرض كل مسلم عليها نفسه وهو يتحرى موقفه مما يجتاح الأمة من شراسة الأعداء وتخاذل الأبناء، واحتدام الفتن واختلاط الرؤى واضطراب الولاءات، ليكون في مأمن من مخالفة عقدية بهذا الحجم وتلك الخطورة.

إن خطر الخروج على مبدأ الولاء والبراء، على الدين والعقيدة أمر معلوم وقناعة راسخة، ولقد رأينا أثر رسوخ هذه القناعة الإيمانية عند المؤمنين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وممن تبعهم بإحسان، وذلك من خلال الحظر المطلق والمنع التام من موالاة الكافرين على المسلمين، أو الاستنصار بالكافرين على المسلمين، حتى عندما تقع العداوة ويقع الاحتراب بين طائفتين من المؤمنين.

وبالمقابل، فإنه لا أثر لهذه القناعة عند المنافقين الذين لبسوا ظاهر الإسلام ليواروا باطن الكفر الذي ما يلبث أن يظهر خـَفِيّـُه وينكشف مستوره عندما يستشعر أولئك المنافقون الاستقواء بالأعداء على أهل الإسلام، وعندئذ تبدو العداوة في أقوالهم وأفعالهم، لتكون غيضاً من فيض العداوة التي تضطرم في صدورهم، كما وصفهم العليم الخبير وفضح دقائق خفايا نفوسهم وخواطرهم فقال سبحانه في سورة الحشر: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (11)}

وقال سبحانه عنهم في آل عمران: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (118) هَا أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (119) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (120)}

وقد أحببنا هنا أن نورد وقائع متباينة لنرى حال مبدأ الولاء والبراء عند كل من المؤمنين والمنافقين.

**الولاء والبراء عند المؤمنين.**

**دروس من الفتنة الكبرى:**

والمقصود بالفتنة الكبرى ما جرى بين الصحابيين الجليلين علي ومعاوية رضي الله عنهما وأرضاهما، من الخـُلـْف والاحتراب في أعقاب مقتل شهيد الدار عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه.

فقد كان في تلك الفتنة والحرب بين الفريقين - على ما فيها من المآسي – تجسيد وترسيخ لمبدأ الولاء والبراء الذي لم يتزلزل بالرغم من عاتيات الفتن التي عصفت به، كما كان فيها مدرسة للأحكام الشرعية، العقدية والفقهية، التي تجلت واقعاً عملياً من خلال تلك الفتنة.

فقد علمتنا تلك الحرب أن قتلى الفتنة والبغي فيما بين المسلمين يُغسلون ويُكفنون ويُصلى عليهم، سواء في ذلك الظالم والمظلوم، لأنهم ليسوا قتلى جهاد، وإنما قتلى فتنة.

وعلمتنا تلك الفتنة أنه لا سبي ولا غنيمة بين المسلمين، فإذا ظهر أحد الفريقين على الآخر في الفتنة فليس لهم غنيمة الأموال ولا استرقاق الذراري والنساء.

وعلمتنا تلك الفتنة أيضاً أنه لا يحل لأي من الفريقين، ولو كان مبغياً عليه مظلوماً، لا يحل له أن يستدفع ظلم وبغي إخوانه بموالاة ومحالفة أعداء دينه، فإن عدو الدين عدو مشترك بين الفريقين، والقضية عندئذ قضية عقدية مبدئية، لا مساومة عليها ولا تراجع عنها تحت أي ضغط كان، وإلا فقد كان علي رضي الله عنه في الكوفة من أرض العراق، وكان وراءه الفرس في عراق العجم، ولكنه، رضي الله عنه، لم يأذن لنفسه ولم يأذن له دينه أن يوالي الفرس ويتخذ منهم عمقاً استراتيجياً وكثرة عددية يستعين بهم على حرب معاوية رضي الله عنه، ومن معه من أهل الشام، وقد كان علي رضي الله عنه يرى نفسه محقاً في حربهم.

وقد كان معاوية رضي الله عنه في دمشق من أرض الشام، وكان وراءه من الروم أقاليم ومَلِك ودولة ذات شأن وشوكة، وكان يرى نفسه أيضاً محقاً في حرب علي رضي الله عنه، ولكنه لم يأذن لنفسه ولم يأذن له دينه أن يتخذ من نصارى الروم حلفاء وأولياء وأعواناً على حرب عليٍّ ومَن معه مِن أهل العراق.

وودَّ الروم والفرس لو ظفروا بشيء من ذلك يشفون به غيظ قلوبهم من المسلمين، ويروون ظمأ سيوفهم من دماء المسلمين بذريعة الانتصار لمن استنصر بهم من المسلمين.

ولكن إدراك كل من علي ومعاوية رضي الله عنهما، لخطورة هذا الأمر على دين كل منهما وإسلامه، ووضوحَ مبدأ الولاء والبراء في عقيدة كل منهما، وتـَشبُّعَ كل منهما بتربية وتوجيه القرآن في هذا الشأن، حال بين الروم والفرس وبين ما يشتهون، بل لم يكن الروم والفرس يجرؤون على مجرد عرض الخدمة والمساعدة على علي أو معاوية رضي الله عنهما، ليقينهم سلفاً بأن هذا العرض ليس له موطئ قدم على أرض الأخوّة الإسلامية، ولا موقع له في عقيدة وقناعة كل من الرجلين.

وقد كان كل الذي حاوله الروم في استثمار بيئة الفتنة أن ملك الروم حاول أن يجتاح أطراف الشام الشمالية ليدرك بعض ثأره من معاوية الذي كان قد أذله وقهره في حروب الفتوح زمن كل من عمر وعثمان رضي الله عنهما، حيث كان عثمان والياً على الشام للخليفتين الثاني والثالث.

قال ابن كثير في تاريخه، في ترجمة معاوية رضي الله عنه:

"وطمع في معاوية ملك الروم بعد أن كان قد أخشاه وأذله وقهر جنده ودحاهم، فلما رأى ملك الروم اشتغال معاوية بحرب علي تدانى إلى بعض البلاد في جنود عظيمة وطمع فيه. فكتب معاوية إليه: والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك يا لعين لأصطلحن أنا وابن عمي عليك، ولأخرجنك من جميع بلادك، ولأضيقن عليك الأرض بما رحبت. فعند ذلك خاف ملك الروم وانكف وبعث يطلب الهدنة".[[75]](#footnote-76)

إذاً فقد تـَشبَّع الرعيل الأول من أجيال الإسلام بهذا المعنى الذي ضعف وضمر بعد في قلوب الناس، مما مكن لأعداء الإسلام أن يضربوا الإسلام بأيديهم وأيدي المسلمين، كالذي كان من ملوك الممالك الإسلامية في الأندلس، الذين جعل بعضهم يستعين على بعض بعدوهم من الفرنجة، وكالذي كان من ملوك المالك الإسلامية في البلاد الشامية إبان الحملات الصليبية، حيث جعل يستعين بعضهم على بعض بعدوهم من الصليبين.

أقول: هذا المعنى من قداسة مبدأ الولاء والبراء، الذي تشبع به جيل الصحابة رضي الله عنهم، ومن تبعهم بإحسان، لم يتذوق المنافقون منه قليلاً ولا كثيراً، وإنما جعلوا كل همهم أن يجدوا عدواً للإسلام يضعون أيديهم في يده، ويوالونه ويناصرونه على الدين الذي يُظهرون الانتماء إليه، ولو كان ذلك العدو من مشركي العرب، أو من يهود الحجاز، أو من نصارى الشام، فقد كان كل أولئك أقرب إلى قلوب المنافقين من النبي صلى الله عليه وسلم ومن سائر المؤمنين، كما يتضح ذلك في العنوان التالي.

**الولاء والبراء عند المنافقين.**

**موالاتهم لمشركي العرب:**

لقد وعت لنا السيرة مواقف عدة، خذل المنافقون فيها المؤمنين لمصلحة المشركين الحاقدين على الملة والأمة، وكان من أخطرها وأشهرها موقف المنافقين يوم أحد، يوم خرج النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة باتجاه جبل أحد في ألف مقاتل، ليلقى جيش المشركين من قريش، الذي خرج من مكة حتى نزل عند سفوح أحد في ثلاثة آلاف مقاتل، يحدوهم الحقد والحنق والرغبة في الانتقام ليوم بدر.

حتى إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم بموضع يقال له: [الشوط]، وهو مكان قريب من موضع المشركين بحيث يتراءى الجيشان، إذا بعبد الله بن أبَي، رأس النفاق والمنافقين، ينسحب من جيش النبي صلى الله عليه وسلم بنحو من ثلاثمائة مقاتل، مظهراً الاعتراض والاحتجاج على أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ برأي غيره في الخروج ولم يأخذ برأيه في المكث في المدينة.

رجع ابن أبَي بمن أطاعه من المنافقين، وهم يبلغون نحواً من ثلث جيش المسلمين، وانسحب باتجاه المدينة وهو يقول: ما ندري علام نقتل أنفسنا؟!

وتبعهم عبد الله بن حرام الأنصاري، والد جابر رضي الله عنهما، يُذكـِّرهم واجب الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن دينه، ويحضهم على الثبات ويوبخهم على التولي والانسحاب، ويقول لهم: تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فأجابوه قائلين: لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع، ولكنا لا نحسب أن قتالاً سيقع.

فرجع عنهم عبد الله بن حرام رضي الله عنه قائلاً: أبعدكم الله أعداءَ الله، فسيغني الله عنكم نبيه صلى الله عليه وسلم.

كيد ومكر وكذب وتناقض، كل ذلك كان واضحاً في كلام أولئك المنافقين.

فقد قالوا حين هموا بالانسحاب: ما ندري علام نقتل أنفسنا؟!. ولما حثهم عبد الله بن حرام على الثبات قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع.

وهذا الاضطراب والتناقض يدل على أن وراء ذلك تدبيراً وكيداً تمّ توقيته بدقة وإحكام، وإلا فإن من حق كل قارئ لهذا الخبر أن يتساءل: لماذا لم يمتنع ابن أبَي من الخروج أصلاً؟! لماذا خرج ثم تولى بعد أن تراءى الجمعان، وكان يسعه أن لا يخرج أصلاً؟؟!!

إنه يريد من وراء ذلك أن يثبط الهمم ويفت في عضد الجيش ويبث روح الانهزام فيه، وفي نفس الوقت فإنه ينعش الروح القتالية عند الخصوم المشركين الذين ينظرون إلى جيش المسلمين وقد وقع فيه الشرخ والنقص والتراجع.

وكاد المنافق يدرك بعض هذا لولا أن الله سلّم، فقد همّت بنو حارثة من الأوس، وبنو سلِمة من الخزرج أن تلحقا بابن أبي ومن معه، ولكن الله تعالى تولاهما بالتثبيت فلم تنكـُِصا.

وقد أنزل الله تعالى في هاتين الطائفتين المؤمنتين قوله تعالى:

{ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (121) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (122) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (123)} [آل عمران]

وأنزل في ابن أبَي ومن معه قوله تعالى: { وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (166) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالا لاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (167) الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (168)} [آل عمران]

**موالاة المنافقين لليهود:**

وذلك في شأن بني قينقاع، وهم من يهود الحجاز الذين كانوا يساكنون النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة، وكانوا ممن عاهد النبي صلى الله عليه وسلم أن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.

ولكن اليهود شرقوا بريقهم لما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ظهر ببدر، وكان بنو قينقاع شرّ طوائف اليهود الثلاث التي تجاور المدينة، وقد كانوا قوماً صاغة وحدادين وأصحاب مهن، وأصحاب سوق وتجارة، مما مكنهم من حيازة المال الوافر والعتاد الحربي وتكوين قوة ضاربة قوامها نحو من سبعمائة من المقاتلين ما بين حاسر ودارع.

فحملهم غرورهم بتلك القوة والكثرة، وغيظهم من ظهور النبي صلى الله عليه وسلم ببدر، على أن يجترئوا على الإساءة إلى المسلمين مرة بعد أخرى، والنبي صلى الله عليه وسلم يعظهم ويذكرهم ويخوفهم عاقبة الغدر ونقض العهد، ويدعوهم إلى الاعتبار بمصير المشركين في بدر.

ولكنهم تجاهلوا كل ذلك وقالوا: لا يغرنك أنك لقيت في بدر قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس.

ثم حدث أن امرأة أنصارية مِنْ الْعَرَبِ قَدِمَتْ بِجَلـَبِ لَهَا فَبَاعَتْهُ بِسُوقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ، وَجَلَسَتْ إلَى صَائِغٍ بِهَا، فَجَعَلُوا يُرِيدُونَهَا عَلَى كُشْفِ وَجْهِهَا فَأَبَتْ، فَعَمِدَ الصّائِغُ إلَى طَرَفِ ثَوْبِهَا فَعَقَدَهُ إلَى ظَهْرِهَا وهي غافلة ، فَلَمّا قَامَتْ انْكَشَفَتْ سَوْأتهَا، فَضَحِكُوا بِهَا، فَصَاحَتْ. فَوَثَبَ رَجُلٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الصّائِغ فَقَتَلَهُ - وَكَانَ يَهُودِيّا - وَشَدّتْ الْيَهُودُ عَلَى الْمُسْلِمِ فَقَتَلُوهُ، فَاسْتَصْرَخَ أَهْلُ الْمُسْلِمِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْيَهُودِ، فَغَضِبَ الْمُسْلِمُونَ فَوَقَعَ الشّرّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ بَنِي قَيْنُقَاعَ.

وحينئذ خرج النبي صلى الله عليه وسلم بجنود الله من الصحابة إلى حصار بني قينقاع، فقد نقضوا العهد وهتكوا العرض وسفكوا الدم.

فامتنعوا بحصنهم، فضرب النبي صلى الله عليه وسلم الحصار عليهم خمس عشرة ليلة، ثم قذف الله في قلوبهم الرعب، فرضوا بأن ينزلوا مذعنين لحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، يحكم ما يشاء في رقابهم وأموالهم ونسائهم وذراريهم، فنزلوا ووُضعوا في القيود بانتظار أن يحكم فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حكمه.

وكانوا في الجاهلية حلفاء الخزرج الذين يرأسهم عبد الله بن أبَيٍ ابنُ[[76]](#footnote-77) سلول الخزرجي، الذي كان رأس النفاق وكبير المنافقين في المدينة بعد هجرة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم إليها.

وخشي ابن سلول أن يحكم النبي صلى الله عليه وسلم على رجال بني قينقاع بالقتل، فقام يطالب النبي صلى الله عليه وسلم بالعفو عن دمائهم قائلاً: يا محمد أحسن في موالي. فلم يرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكرر ابن سلول مقالته بإلحاح، فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم.

فما كان منه إلا أن أدخل يده في جيب درع رسول الله صلى الله عليه وسلم. فغضب رسول اللَّّه صلى الله عليه وسلم حتى رأوا لوجهه ظللاً، وقال: ويحك أرسلني. فقال ابن سلول في وقاحة وإصرار: لا والله لا أرسلك حتى تـُحسن في موالي، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة ؟ إني والله امرؤ أخشى الدوائر .

فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلحاحه وإصراره وهبهم له.- أي ترك قتلهم من أجله - تأليفاً له، لعل ذلك الإحسان يستميله إلى الحق.

فحكم عليهم بالجلاء، وأن لا يساكنوه في المدينة، وأن يتركوا سلاحهم وأموالهم ومتاعهم، إلا بعيراً واحداً لكل ثلاثة منهم.

وقد كان عبادة بن الصامت الأنصاري، رضي الله عنه، خزرجياً أيضاً، وكان له من حلف هؤلاء اليهود مثل ما لابن سلول، ولكنه لما رأى النفاق يطل برأسه بادياً في موقف ابن سول، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخلع أمامه حلف بني قينقاع وتبرأ منهم وقال: يا رسول الله، أتولى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار ووَلايتهم.

أجل إنّ قضية الولاء والبراء قضية جوهرية في تصنيف أهل الإيمان وأهل الكفر، لا يصح أن يكتنفها غموض أو لبس أو تردد، ولا بد فيها من المفاصلة البينة، كالذي فعله عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

قال ابن كثير: ففيه - يعني عبادة بن الصامت - وفي عبد الله بن أبَيّ نزلت الآيات في المائدة: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ...} إلى قوله: {فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} [[77]](#footnote-78)

ولم يتعظ ابن سلول والمنافقون معه بتلك الآيات ولا بذلك الوعيد، ولم يأبه بذلك الهجوم القرآني الكاسح: { ومَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ}، ولو كان في قلبه شيء من إيمان لوجد معرة وسُبَّة في أن يُصنـّف مع الكافرين، ولكنه لم يأبه لأنه من الكافرين ومعهم على الحقيقة، ولذلك فإنه لم ينته عما هو فيه من موالاة اليهود مرة أخرى في واقعة بني النضير.

إذ لم يمض إلا نحو من سنة ونصف السنة على نقض بني قينقاع، حتى وقع النقض والغدر من يهود بني النضير الذين أتاهم النبي صلى الله عليه وسلم يكلمهم في أن يعينوه في دية قتيلين من بني كلاب، قتلهما الصحابي عمرو بن أمية الضمري في طريق عودته من موقعة "بئر معونة" ثأراً لأصحابه السبعين التي قتلوا غدراً في تلك الموقعة، ولكن القتيلين كانا يحملان كتاب أمان من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعلم به عمرو الضمري.

وكان العون على تلك الدية من مقتضيات المعاهدة التي أبرمها النبي صلى الله عليه وسلم مع اليهود بعد الهجرة.

وأظهر اليهود ترحيباً بطلب النبي صلى الله عليه وسلم، وقالوا: نفعل يا أبا القاسم، اجلس هاهنا حتى نقضي حاجتك.

فجلس صلى الله عليه وسلم إلى جدار من بيوتهم ينتظر ما وعدوه، ومعه ثلة من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر.

وسوّل الشيطان لليهود أن يستغلوا الفرصة، وأن يستثمروا ما يرونه ثغرة نادرة، يستطيعون من خلالها أن يعتدوا على حياة النبي صلى الله عليه وسلم، فقال بعضهم لبعض: إنّكُمْ لَنْ تَجِدُوا الرّجُلَ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ هَذِهِ، فَمَنْ رَجُلٌ يَعْلُو عَلَى هَذَا الْبَيْتِ فَيُلْقِي عَلَيْهِ صَخْرَةً فَيُرِيحَنَا مِنْهُ؟

فَانْتَدَبَ لِذَلِكَ أَحَدُهُمْ فَقَالَ: أَنَا لِذَلِكَ. فَصَعِدَ لِيُلْقِيَ عَلَيْهِ صَخْرَةً كَمَا قَال.

وكان جبريل أعجل منهم بالخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بِمَا أَرَادَ الْقَوْمُ، فَقَامَ صلى الله عليه وسلم مسرعاً حتى دخل المدينة، وتبعه أصحابه مستفهمين عن الأمر الذي حمله صلى الله عليه وسلم على مغادرة المكان قبل أن يأتي اليهود بما وعدوا به من المعونة على الدية، فأخبرهم بما همّت به يهود.

وأرسل النبي صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة الأوسي إلى بني النضير برسالة شفوية يقول لهم فيها: ( اخرجوا من المدينة لا تساكنوني بها، وقد أجَّلتكم عشراً، فمن وجدتُ بعد ذلك بها ضربت عنقه.

وعلم اليهود أنهم استحقوا العقاب بالغدر الذي أحدثوه، وأنهم لا قبل لهم برد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعلوا يتأهبون للخروج قبل أن تمضي الليالي العشر التي ضربها لهم أجلاً.

إلا أن ابن سلول أرسل إليهم سراً: أن اثبتوا وامتنعوا ولا تخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم يموتون دونكم، وتنصركم قريظة وتنصركم غطفان.

واغتر بنو النضير بوعود المنافق الأكبر ابن سلول، واستقر رأيهم على رد أمر النبي صلى الله عليه وسلم، والتأهب للمواجهة، وأرسل زعيمهم حيي ابن أخطب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إنا لا نخرج من ديارنا، فافعل ما بدا لك.

وهكذا كان أذى أؤلئك المنافقين في موالاتهم لليهود أشد من أذى اليهود أنفسهم على المسلمين، إذ اضطر النبي صلى الله عليه وسلم بسبب تلك الموالاة الذميمة إلى أن يُجيش جيشاً ويخرج لحصار بني النضير في وقت كان المسلمون فيه أحوج ما يكونون إلى تقليل أو تأجيل المواجهات، لِما كان قد انفتح عليهم من الجبهات، وبُذل لهم من المكائد والعداوات، وتوالى عليهم من الابتلااءات.

فقد أصيبوا إصابة بالغة مؤلمة في أحد، ثم أصيبوا في واقعة غدر من قبيلتي "عضل والقارة" كان ضحيتها عشرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أصيبوا في نفس الشهر بواقعة غدر أخرى أشد وأفظع، نفذها بنو عامر في نجد، كان ضحيتها سبعون من قراء الصحابة وفضلائهم ودعاتهم.

وها هم اليوم يضطرون بسبب ذلك الولاء المقيت بين المنافقين واليهود إلى مواجهة بني النضير.

خرج النبي صلى الله عليه وسلم في جيش يحمل رايته علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وضرب الحصار على بني النضير، فجعلوا يرشقون المسلمين بالحجارة والنبل من فوق الأسوار، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بحرق بساتينهم.

فلما رأوا حرق بساتينهم، وخذلان ابن سلول لهم، واعتزال قريظة عن نصرتهم، لم يجدوا بداً من الاستسلام والموافقة على الجلاء الذي سبق أن قبلوا به قبل أن يحرضهم ابن سلول على الامتناع والمقاومة.

وقد أنزل الله تعالى في تلك الموالاة المنكرة توبيخاً للمنافقين استحقوه بجدارة، فقد أصابوا من النذالة أقصاها ومن المذمة منتهاها، فلا هم أخلصوا الولاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللدين الذي يستعلنون بالانتماء إليه، ولا هم وفوا لبني النضير بالوعود التي قطعوها والأيمان التي حلفوها.فأنزل الله تعالى فيهم قوله في سورة الحشر: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(11) لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ(12)} إلى أن قال: { كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ(16)فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ(17)}

**موالاة المنافقين للنصارى**

أما موالاة المنافقين لأعداء الإسلام من النصارى فكانت أمراً عجيباً، وكانت خطتهم فيها مكلفة مجهدة، وكان كيدهم فيها مبرماً محكماً، ولكن الله تعالى فضحه ونقضه.

فمن المعلوم أن نصارى الروم بعيدة دارهم في الشام وما وراءها من أرض الروم، ولم يكونوا في العهد النبوي مجاورين لدولة الإسلام كاليهود، ومع هذا فقد عمل المنافقون على إقامة الموالاة معهم ضد النبي صلى الله عليه وسلم ودينه وأمته.

وذلك عبر رجل أوسي كان من الشانئين المجاهرين بعداوة النبي صلى الله عليه وسلم، يقال له: أبو عامر الراهب. وقد اشتهر بلقب الراهب في الجاهلية، لأنه كان يزعم أنه على الحنيفية ويذكر البعث، فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم عاداه وحسده، وبلغ من حسده أن خرج إلى مكة ممالئاً للمشركين على النبي صلى الله عليه وسلم، فكان من المحرضين على وقعة أحد، وكان في عداد جيش المشركين القرشيين في تلك الغزوة.

ولم يزل ذلك الفاسق يزداد غيظاً كلما زاد الله رسوله صلى الله عليه وسلم ودينه عزاً ونصراً.

ولما انتشر نور الإسلام في أرجاء الجزيرة، وبلغ تخوم الشام حيث سلطان الروم، ووقع أول احتكاك مع النصارى من خلال غزوة مؤتة في السنة الثامنة من الهجرة، طمع المنافقون في الاستقواء بالروم ليشفوا غيظهم من النبي صلى الله عليه وسلم ودولته وأمته.

فوقع التواطؤ بين المنافقين في المدينة، وبين أبي عامر الراهب، على أن يرتحل أبو عامر إلى قيصر الروم ويتنصر هناك، ويستمد القيصر برجال من الروم يرسلهم سراً إلى المدينة، على أن يستعد منافقو المدينة بالرجال والسلاح، ويُعِدوا وَكراً لاستقبال ذلك المدد الموعود من مقاتلي الروم، حتى إذا تكامل حضورهم انقضوا على المسلمين من الداخل، وباغتوهم من حيث لا يحتسبون، ليتحقق لهم ما وعدهم به الفاسق أبو عامر من إخراج النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة.

وكان من بالغ مكر المنافقين أن أعدوا ذلك الوكر تحت اسم "مسجد" إمعاناً منهم في التلبيس والخداع، ثم أوغلوا في المكر أكثر عندما جاء وافدهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو يتجهز إلى تبوك - يقول: يا رسول الله قد بنينا مسجداً لذي الحاجة والعلة والليلة المطيرة، ونحب أن تصلي فيه وتدعو بالبركة.

يريدون بذلك أن يُكسبوا ذلك المسجد المزيف الصفة الرسمية، والمشروعية التي تنفي عنه كل اعتراض أو تهمة.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني على سفر وحال شغل، فلو قدمنا لأتيناكم وصلينا لكم فيه.

فلما رجع صلى الله عليه وسلم من تبوك، أتاه المنافقون يستنجزونه ما وعدهم من الصلاة في وَكر نفاقهم الذي سموه مسجداً.

فدعا النبي صلى الله عليه وسلم بقميصه ليلبسه ويأتيهم، فما برح حتى نزلت عليه الآيات من سورة التوبة بخبر مسجد الضرار:

{ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(107) لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيه فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ(108) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (109) لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(110)}

فلما نزل القرآن بذلك انتدب النبي صلى لله عليه وسلم أربعة من أصحابه فقال: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه.

فخرجوا مسرعين فأنفذوا أمر النبي صلى الله عليه وسلم.

وبذلك أبطل الله كيد أولئك المنافقين في موالاة النصارى.

أما صاحبهم أبو عامر فلم يرجع من سفره المشؤوم، لقد هلك في أرض الروم شريداً وحيداً.

**فوائد:**

**الأولى:** أن المنافقينالذين ضربوا في كل واد واستجابوا لكل فتنة في سبيل إحراز العزة التي يحلمون بها، والمنعة التي يتطلعون إليها بموالاتهم لكل صنوف الكفر ضد المسلمين، والتي عبروا عنها بقولهم: { نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ} كما حكاه عنهم القرآن. هؤلاء المنافقون لم يحرزوا من ذلك شيئاً، فما نالوا بصنيعهم الذميم عزة ولا حماية، ولا نصرة ولا وقاية، ولا توطيد سلطان ولا تثبيت أركان، ولكنهم خابوا الخيبتين وخسروا الخسارتين، فلا هُم أدركوا العزة التي يؤملون من الكفار، ولا هم سلِموا من الوعيد بعذاب النار.

وذلك يقفنا على حقيقة إيمانية عظيمة، يجب أن يتمثلها المسلم ليكون في عصمة من ذلك العمه والتخبط الذي وقع فيه المنافقون. تلكم الحقيقة الإيمانية الجليلة الجلية هي: أنَّ العزة أو الذلة، والنصر أو الهزيمة، والملك والسلطان أو الخزي والخِذلان، كل ذلك بيد الله، يصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء.

فكيف يطلب المسلم ذلك من غير الله، وهو سبحانه القائل عن المنافقين:

{ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا(138)الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا(139)؟!} [النساء ]

كيف يُطلب توطيد السلطان وتثبيت الأركان من غير الله، بل من أعداء الله وأعداء دينه، وهو سبحانه القائل في كتابه: { قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(26) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ(27)} [آل عمران]

فمن أسمائه الحسنى سبحانه: "المَلِك" ومن أسمائه: "مالك الملك" فكيف يصح من مسلم أن يطلب إدراك الملك والسلطان الذي يحب، أو إزالة الملك والسلطان عمن لا يحب، من غير مالك الملك الذي يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء؟!

ثم إن اللافت حقاً الذي يستوقف المتأمل لآيات القرآن، أن الله سبحانه قال بعد الآيتين المتقدمتين من آل عمران مباشرة: { لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ(28)} [آل عمران]

فكأن الآيات تقول: يا من تطلبون الملك من غير مالك الملك، بل من أعدائه، قد ضللتم السبيل وأضررتم بعقيدة التوحيد، وبُؤتم بالوعيد الشديد.

وأي وعيد أشد وأخوف من قوله تعالى: { وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}.؟!

**الثانية:** أن موالاة المرء غير أهل دينه محرمة في الأديان السماوية السابقة كما هي محرمة في دين الإسلام، فهي من المبادئ التي اتفقت عليها الشرائع، وهذا يرفعها عن درجة فروع الأحكام ليلحقها بأصول الدين.

والدليل على ذلك أن الله تعالى وبّخ اليهود في القرآن على أنهم كانوا يوالون مشركي العرب، بعضهم ضد بعض.

وذلك أن يهود المدينة كانوا قد حالف بعضهم الأوس وبعضهم الخزرج، فإذا احتربت الأوس والخزرج في الجاهلية، خرج اليهود، كلٌّ مع حلفائه، ينصرونهم على أعدائهم من أوس أو خزرج، وعلى من مع أعدائهم من اليهود المحالفين.

وبمقتضى تلك الأحلاف فإن اليهودي يظاهر غير اليهودي على إخوانه في الدين من اليهود، ويستبيح دماءهم، وتهجيرهم من ديارهم، ويقع منهم الأسرى في أيدي الفريقين.

فكان اليهود لا يتحرجون أن يقتل بعضهم بعضاً، ويهجّر بعضهم بعضاً بمقتضى تلك الموالاة مع المشركين، ولكنهم يتأثمون ويتحرجون جداً من إمساك الأسرى من اليهود، بل إذا علموا بالأسير من اليهود وقع بأيدي حلفائهم بادروا إلى فدائه بأموالهم وتحريره من الأسر، بدعوى أن التوراة تنهى عن استرقاق اليهود وتأمر بفدائهم.

فأنزل الله سبحانه توبيخ اليهود على هذه الانتقائية والتبعيض في الأحكام، فقال لهم في البقرة: { وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ(84) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(85) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ(86)}

قال القرطبي عند تفسير هذه الآيات من سورة البقرة:

قال علماؤنا: كان الله تعالى قد أخذ عليهم أربعة عهود: ترك القتل، وترك الإخراج، وترك المظاهرة، وفداء أساراهم. فأعرضوا عن كل ما أمِروا به إلا الفداء، فوبخهم الله على ذلك توبيخا يتلى، فقال: " أفتؤمنون ببعض الكتاب " وهو التوراة " وتكفرون ببعض " ؟.

ثم إن القرطبي رحمه الله - ومن باب: الشيء بالشيء يذكر - عقد مقارنة بين هذه الصورة الذميمة لليهود التي استحقوا عليها التوبيخ والذم، بسبب موالاتهم المشركين على بني ملتهم، ونقضهم عهود ربهم، وبين حال المسلمين في زمانه ومكانه، الذين وقعوا في مثل أو أشد مما وقع فيه اليهود من موالاة أعداء الدين على أهل الملة، حيث كان القرطبي يعيش في بلاد الأندلس في القرن السابع الهجري، يوم كان ملوك الطوائف يستنصر بعضهم على بعض بالفرنجة.

فقال القرطبي: قلت: ولعَمر الله لقد أعرضنا نحن عن الجميع - يعني عن جميع ما في الكتاب، لا عن بعضه كما فعل اليهود - بالفتن، فتظاهر بعضنا على بعض ! ليت بالمسلمين، بل بالكافرين ! حتى تركنا إخواننا أذلاء صاغرين يجري عليهم حكم المشركين، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم !.[[78]](#footnote-79)

**الثالثة:** استوقفتني آياتُ لعنِ أهل الكتاب في سورة المائدة، والتي يوبخ الله فيها أهل الكتاب على موالاة المشركين، ويجعل ذلك من أسباب استحقاقهم اللعن، فيقول سبحانه: { لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (78) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (79) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (80) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (81)}

وقد أفادت الآيات فوائد جمة، من أهمها في باب الولاء والبراء:

1. أن موالاة غير أهل الملة من خلق اليهود، وحري بالمسلم أن لا يشابههم، فنهن مأمورون بمخالفة يهود حتى في أبواب الفضائل والطاعات، فكيف إذا كان ذلك في صنوف المخازي والمنكرات، وهذا سبب إضافي ينفر المسلم من موالاة غير أهل ملته.
2. أن موالاة المشركين ضد المسلمين تستقبح حتى من اليهود، لأن كونهم أهل كتاب يقتضيهم أن يكونوا أميل إلى المسلمين ضد المشركين، وليس العكس. فإذا كان ذلك يستقبح من اليهود ضد المسلمين فكيف إذا كان من المسلمين ضد المسلمين؟!
3. أن هذه الآيات تقرر بوضوح أن موالاة المرء غير أهل ملته، من مظاهر كفر ذلك الموالي بتلك الملة التي ينتمي إليها، وبرسولها وكتابها، وهذا أخطر ما في هذا الباب، وانظر إلى بيان ذلك في قوله تعالى في الآيات المتقدمة: { وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ}

**المبحث الرابع: الصبر:**

كان لا بد لنا ونحن نتحدث عن معالم ومكونات موقف المسلم من مصائب الأمة أن نتحدث عن عنصر الصبر.

إذ لا بد لكل مسلم من أن يتحلى بالصبر الإيجابي في أي موقع كان، وعلى جميع المستويات.

ومنشأ حتمية الصبر أن الابتلاء أمر حتمي في سنة الله في عباده المؤمنين، وهو سبحانه القائل: { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (214)} [البقرة]

وهو سبحانه القائل مقسمًا:{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} [محمد:31]

وإذا كان الابتلاء سنة في العباد ماضية، وأمراً لا بد منه، فلا بد للابتلاء من الصبر في جميع المجالات والساحات.

إن كان المسلم في ساحات القتال والنزال والطعن والضرب فعليه بالصبر. وإن كان في منزله وبين أهله، ثم رأى حقد الأعداء يهدم منزله أو يغتال طفله أو يقتل أهله فعليه بالصبر.

وإن كان يجد نفسه مستهدفاً بالحصار والتضييق الذي يَحْرمه من لقمة الغذاء أو جرعة الدواء أو شربة الماء فعليه بالصبر.

وإن وجد نفسه أسيراً مغيباً في غياهب السجون والمعتقلات، نهباً للتعذيب والإهانات، لا يَعرف فيم أخِذ ولا فيم يُعذب؟ ولا يعرف أمد البلاء ونهاية العناء، فعليه بالصبر.

وإن كان يجد نفسه أو دِينه أو منهجه مستهدفاً بالحملات الإعلامية الظالمة الشرسة التي تـُزوِّر الحقائق وتشوه الفضائل وتزين الباطل فعليه بالصبر.

وإن كان يجد الأسى يعتصر قلبه على ما يحل بإخوانه في الدين من صنوف تلك الابتلاءات وغيرها فعليه بالصبر.

ولا شك ولا ريب أن الصبر المطلوب في كل ذلك هو الصبر الإيجابي، الصبر الذي لا يعني مجرد مضغ الألم والتسليم بالواقع، وإنما الصبر الذي يعني الثبات على المبدأ والإصرار على الموقف وتجشم أعباء وتكاليف المواجهة.

الصبر الذي يعني المصابرة، والذي يُمَكـّن صاحبه من المناورة والأخذ بزمام المبادرة.

الصبر الذي يستهدف قهر العدو ودحره وإبطال كيده، سواء أكان ذلك في الميدان العسكري أو الاقتصادي أو الثقافي أو الإعلامي أو السياسي.

وشتان بين الصبر بمعناه السلبي الذي يعني ترسيخ الهزيمة وإدمان الهوان، وبين الصبر الإيجابي الذي يعني الإصرار على تحويل الدفاع إلى هجوم والهزيمة إلى نصر.

**شواهد اقتران البلاء بالصبر.**

كثيرة هي الآيات التي تقرن بين البلاء الذي هو أمر قدري، وبين الصبر عليه الذي هو تكليف شرعي، منها ما يعم صنوف البلاء، ومنها ما يخص ضروباً منه.

فأما اقتران الصبر بعموم البلاء فنجده في قوله تعالى: { لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ(186)} [آل عمران].

ومثلها قوله تعالى: { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157)} [البقرة]

وأما اقتران الصبر بأنواع مخصوصة من البلاء، فمنه الصبر على أذى الأعداء وتكذيبهم وكذبهم وكيدهم، وغير ذلك من أنواع الأذى والمكر الذي يدبره ويديره أعداء الدين المبادرون بالعداوة والأذى، كما في قوله تعالى: { وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (34)}[الأنعام]

وقوله تعالى يحكي قول الأنبياء في صبرهم على أذى أقوامهم:

{ وَمَا لَنَا أَلا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (12)} [إبراهيم :]

وقوله سبحانه في تحريض المؤمنين على الصبر في مواجهة ذلك السيل من الكيد والحقد: { وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (119) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (120)} [آل عمران]

وفي صحيح البخاري عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا ؟ قال: ( كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيُجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيُشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه، ويُمْشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه. والله لـَيَـتِمنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون ). [[79]](#footnote-80)

ومن ذلك اقتران الصبر بشرعة الجهاد العسكري الذي ابتلى الله به أهل الإيمان.

وهو سنة المجاهدين من الأنبياء السابقين وأتباعهم، وشواهده كثيرة متظاهرة في القرآن والسنة.

قال الله تعالى عن ذلك: { وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ[[80]](#footnote-81) كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (147) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (148)} [آل عمران].

ويلاحظ هنا أن الصبر الذي نتحدث عنه لا يعني الاستكانة إلى الهوان، إنه أبعد ما يكون عن الوهن الذي هو حب الدنيا وكراهية الموت، { فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} إن الصبر شيء آخر غير الضعف والرضا بالذلة والهوان، إنه صبر الإصرار والإقدام والثبات حتى تنكسر إرادة أهل الباطل، وتكون الغلبة لأهل الحق.

وقد وعد الله المؤمنين الصابرين بهذه الغلبة، بل وطالما حققها لهم كما رأينا في قوله: { فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ}.

وكما أخبرنا الله تعالى عما أسفرت عنه المعركة بين طالوت وجالوت، وقد كان طالوت يقود جيش المؤمنين من بني إسرائيل، في مواجهة جيش الكفر بقيادة جالوت، فأسفرت المعركة عن النصر لأهل الصبر، وهم أهل الحق والإيمان، فقال سبحانه: {وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (250) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ}[البقرة].

وأما اقتران الجهاد بالصبر في شريعتنا، فنقرؤه في صريح قوله تعالى في آل عمران: { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (142) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (143)}.

وفي الآية الخاتمة من آل عمران: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}.

وفي سورة النحل: { ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (110)}

وفي الكلمات التي علّمها النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله عنهما، عندما كان رديفه على دابته حيث قال له:

وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْر، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْب، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) [[81]](#footnote-82)

وقد وعد الله أهل الصبر من المؤمنين، بالنصر ولو كانوا أقل عدداً وعتاداً، فقال سبحانه: { فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (66)} [الأنفال]

وقد وقع النصر مع الصبر حقاً، وقد عاينه الصحابة رضي الله عنهم في المواقع والوقائع، كما قد حدثنا الله تعالى عن ذلك في قصة بدر فقال:

{ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (123) إِذ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ (124) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (125) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (126)} [آل عمران]

فليكن تصديق المؤمنين بوعد الله تعالى النصر على الصبر بمنزلة اليقين الراسخ الذي لا تضعضعه ولا تنال منه التوقعات والتحليلات، بل ولا الوقائع والمتغيرات المرحلية التي تمثل سنة المداولة والتمحيص التي حدثنا الله تعالى عنها، وشرح لنا مقاصدها وحِكَمَها، وحذرنا من أن تنال منا أو تورث فينا وهناً أو حزناً فقال سبحانه:

{ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (139) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (140) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (141) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (142)} [آل عمران]

فإذا رأينا في وقت ما أو مرحلة ما، إدالة لأهل الباطل على أهل الحق، فلا يصح أن يفت ذلك في عضدنا أو ينال من يقيننا بأن العاقبة للمتقين، لأن تلك الإدالة من الوقائع المرحلية التي تتحول وتتغير عاجلاً أو آجلا، قد تتغير في أعوام أو أجيال، وقد تتغير في أيام أو ساعات، ولكنها على كل حال متغيرات، فكيف يصح أن تغير تلك المتغيرات يقيننا، مع ما تعنيه كلمة اليقين من الرسوخ والثبات أمام المتغيرات التي يدل اسمها على عدم ثبوتها؟!

وعندما يتحلى المسلمون بذلك الصبر الذي لا يتزحزح، واليقين الذي لا يتزلزل، فإنه لا يبقى أمامهم إلا أن يخترفوا ذلك جَنىً دانياً يانعاً من النصر والظفر، والعز والتمكين للدين، ومرضاة رب العالمين سبحانه وتعالى.

وعندئذ تتحقق فيهم سنة الله سبحانه التي سبقت الإشارة إليها في الآيات التي تقدم ذكرها من آل عمران: { وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (147) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (148)}

**المبحث الخامس: الدعاء**

ولنجعل مدخلنا إلى هذا المبحث تلك الآيات المشار إليها من آل عمران، لاشتمالها على عنصر الدعاء في مواجهة الأزمات، الذي يعتبر من أهم مكونات موقف المسلم من مصائب وابتلاءات الأمة.

وهي قوله تعالى: { وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (147) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (148)}

**وقفات مع الكلمات الربانية:**

وقبل أن ننطلق في آفاق ودلالات الدعاء فإني أحب أن نتلبث قليلاً للغوص في أعماق الكلمات ودلالات الجمل في الآيات المتقدمة، فأقول:

**أولاً:** أما قوله: { وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ } فإن كلمة " َكَأَيِّنْ " تقوم في المعنى مقام " كم " التكثيرية، كأنه يقول: كم من نبي. والمعنى: كثير من الأنبياء قاتل مع كل منهم ربيون كثير.

**ثانياً:** وأما قوله: { قَاتَلَ مَعَهُ} فقد قرئت هذه الكلمة في قراءات أخرى متواترة بلا ألف، على صيغة المبني للمجهول هكذا: { قـُتِل معه}، وهي قراءة قوية من حيث المناسبة، فقد نزلت هذه الآيات في مناسبة غزوة أحد التي قتِل فيها سبعون من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فهي على هذا المعنى تشجيعٌ للمؤمنين بالنبي صلى الله عليه وسلم على الاستبسال في خدمة الدعوة وتبليغها والذود عنها، وإغراءٌ لهم بالاقتداء بمن سبقهم من خيار أتباع الأنبياء، على نبينا وعليهم الصلاة والسلام.

وأما قراءة { قاتل} فهي قوية من حيث عموم الفضل، لأنه إذا أثنى على من قاتل، كان من قـُتِل داخلاً في الثناء من باب أولى، أما إذا أثنى على من قـُتِل، فلا يدخل فيه من قاتل ولم يـُقـْتل.

**ثالثاً:** وأما قوله: { رِبِّيون}، فهو جمع مفرده: " رُِبِّي " بكسر الراء ويجوز ضمها، وقد حُملت ياء النسب فيه على معنيين:

الأول: أنها نسبة إلى الرِّبة، وهي الجماعة، والمعنى على هذا: وكم من نبي قاتل معه جموع غفيرة وألوف كثيرة، وإلى هذا ذهب ابن كثير والأكثرون، وعليه اقتصر صاحب القاموس.

الثاني: أنها نسبة إلى الرب سبحانه، وعلى هذا المعنى فالرِّبي هو المتّبع لشريعة الرّب. مثل (الربّاني)، والمراد بهم هنا أتباع الرسل وتلامذة الأنبياء.

**رابعاً:** في قوله تعالى: { فَمَا وَهـَنـُوا لِمَا أَصَابَهُمْ .....} إشارة إلى أنَّ الابتلاء بالمصائب سنة الله تعالى في أهل الإيمان، وذلك أن الله تعالى ذكر أولئك المقاتلين بالمدح والثناء، فهم مقاتلون في سبيل الله، وهم أنصار أنبياء الله، ومع هذا فقد أصابهم على أيدي أعدائهم ما أصابهم من القتل والقرح، وذلك ليُختبر إيمانهم، وتعظم بالصبر أجورهم، وتعلو عند الله درجاتهم.

**خامساً:** في قوله سبحانه: { وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} تعليم للمسلمين أن يأخذوا أنفسهم بعبادة الدعاء والضراعة إلى الله تعالى في الشدائد، لا يُذهلهم عن ذلك رهبة ولا شدة، بل ولا رغبة ولا رخاء.

**سادساً:** يلاحظ في دعائهم هذا أنهم قدَّموا فيه الدعاء بالمغفرة على سؤال الثبات والنصر، وفي ذلك أكثر من معنى ودلالة.

1. ففيه إشارة إلى أن السلامة من الذنوب أولى وأحق أن يُعتنى بها من الحرص على إحراز النصر والظفر، وذلك لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، ولأن فوات النصر يعني غالباً مصيبة في الأنفس أو الأموال أو الديار ونحوها، أو كلِّ ذلك مجتمعاً، وكلُّ ذلك من قبيل المصائب في الدنيا، وأما الذنوب فهي مصيبة في الدين، ومعلوم أن للمسلم عزاءً عن مصيبة الدنيا بما يرجوه من الأجر على الاحتساب والصبر، وأما مصيبة الدين فلا عزاء عليها، ولذلك فقد جاء في الدعاء المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم: ( ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ولا تجعل الدنيا أكثر همنا ولا مبلغ علمنا ) [[82]](#footnote-83).
2. وأيضاً ففي تقديم الاستغفار على طلب النصر إشارة إلى أن النصر لا يُطلب بمعصية الله تعالى، وإنما يُطلب بطاعته. فعلى المسلمين أن يتخذوا من التوبة من المعاصي والتنزه عنها سبباً لإحراز النصر، فإن ذنوب المسلمين أعوان لأعدائهم عليهم، ولكـَم قد أتِي المسلمون من قَِبَل كثرة ذنوبهم قِبْل أن يؤتـَوا من قَِبَل كثرة وقوة عدوهم.

ورضي الله عن سيدنا عمر بن الخطاب الذي كتب إلى أمير جيش القادسية سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يقول:

" أما بعد فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله عز وجل أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشدَّ احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم ولا عُدَّتنا كعدتهم، فإذا استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإن لا نـُنصرْ عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا، واعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا: إن عدونا شر منَّا ولن يسلط علينا وإن أسأنا. فرُبَّ قوم سُلط عليهم شرٌ منهم، كما سُلط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفرة المجوس فجاسوا خلال الديار، وكان وعداً مفعولا، اسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم." [[83]](#footnote-84)

1. وأيضاً، ففي تقديم الاستغفار على طلب النصر إشارة أخرى ذات أهمية، وهي أن يذكر المقاتل أنه في ساحة الوغى وسوق المنايا، وأنه حتى ولو كانت نهاية المعركة نصراً للمسلمين، فقد لا يدرك تلك النهاية ولا يرى ذلك النصر، إذ قد يُقتل قبل ذلك. فليكن من أهم هَمِّه أن يستعد للقاء ربه بالتوبة والاستغفار والاستكثار من زاد الآخرة.

وهذا يذكرنا بما كان من الصحابي البدري سَواد بن غَزيّة رضي الله عنه، عندما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدل صفوف أصحابه يوم بدر، وفى يده سهم يعدل به القوم، فمر بسواد بن غزيّة رضي الله عنه وهو متقدم عن الصف، فطعن في بطنه وقال: " استو يا سَواد " فقال: يا رسول الله أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدني. - يعني أمكني من القصاص منك - فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطنه فقال: استقد. قال: فاعتنقه فقبّل بطنه.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما حملك على هذا يا سواد؟ قال: يا رسول الله حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك. فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير. [[84]](#footnote-85)

أجل هكذا يجب أن يكون المقاتل حريصا على زاد الآخرة وقد توافرت أسباب المنية.ولا يَتـَّكِلن على أجر الشهادة، فإن المؤمن الحريص الحصيف يخاف أن لا يدرك ذلك الأجر، وأهل الخوف لا يألون جهداً ما احتاطوا،

فهذا أبو عامر الأشعري رضي الله عنه، بعثه النبي صلى الله عليه وسلم بعد حنين على سرية يتعقب بعض فلول هوازن، وبعث معه في السرية ابن أخيه عبد الله بن قيس، المشهور بـ: أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه.

قال أبو موسى: فرُمي أبو عامر في ركبته، رماه جُشَمِي بسهم فأثبته في ركبته، فانتهيت إليه فقلت: يا عم من رماك؟ فأشار إلى أبي موسى فقال: ذاك قاتلي الذي رماني. قال أبو موسى: فقصدت له فلحقته، فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلته. ثم قلت لأبي عامر: قتل الله صاحبك. قال: فانزع هذا السهم. فنزعته فنزا منه الماء. قال: يا ابن أخي أقرئ النبي صلى الله عليه و سلم السلام وقل له: استغفر لي. واستخلفني أبو عامر على الناس، فمكث يسيرًا ثم مات. فرجعتُ فدخلت على النبي صلى الله عليه و سلم في بيته على سرير مرمل[[85]](#footnote-86) وعليه فراش، قد أثـَّر رمال السرير بظهره وجنبيه، فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر وقوله: قل له استغفر لي. فدعا صلى الله عليه وسلم بماء فتوضأ، ثم رفع يديه فقال: اللهم اغفر لعبيدٍ أبي عامر. ورأيت بياض إبطيه، ثم قال: اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس.

قال أبو موسى: فقلت: ولي فاستغفر. فقال: اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه وأدخله يوم القيامة مُدخلا كريما. [[86]](#footnote-87)

فهكذا يستعد المقاتل المسلم اليقظ للقتل دائماً، وذلك بالاستغفار من كل صغيرة وكبيرة، حتى إذا ما قـُتِل لقي الله تعالى على توبة واستغفار.

ذلك ما يوحي به قول أولئك الداعين من المقاتلين مع الأنبياء في الآيات التي نحن بصددها: { رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا} أي الصغائر. { وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا} أي ما كان وراء الصغائر من الكبائر والموبقات.

**سابعاً:** يلاحظ في تلك الآيات التي تعلمنا الدعاء في الشدائد، أن ذلك الدعاء لم يكن دعاء قاعدين، وإنما كان دعاء مقاتلين.

ومن المهم ملاحظة ذلك، حتى لا يتكل الناس على الدعاء ويدَعوا العمل، ويتقاعسوا عن الإعداد للجهاد كما أمر الله.

ولو شاء الله سبحانه لنصرهم بالدعاء وحده من غير جهاد، بل لو شاء لنصرهم من غير دعاء ولا جهاد، ولكنه سبحانه ابتلى المؤمنين من عباده بجهاد عدوهم ليُمحِّص ما في صدورهم ويرفع درجاتهم، ويُخرج من بين ظهرانيهم المنافقين المندسين في صفوفهم، ويكرم من شاء بالشهادة في سبيله، كما قال سبحانه في آل عمران: { إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (140) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (141)}

وكما جاء في سورة " محمد " التي تسمى سورة " القتال " حيث حرض الله تعالى المؤمنين على حسن البلاء في عدوهم مبيناً تعليل ذلك، فقال سبحانه: { فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ(4) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ(5) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ(6)}

**دعاء المقاتلين ودعاء القاعدين.**

وليس معنى قولنا: إن دعاءهم كان دعاء مقاتلين. أنه لا يقبل إلا دعاء المقاتل، وإنما المقصود أن تحييَ الأمة شِرعة الجهاد، وأن ينفر النافرون في سبيل الله، فإذا رفعت راية الجهاد، ونفرت من كل فرقة من المؤمنين طائفة، فعلى كل من النافرين والقاعدين عندئذ الدعاء، بل على كل مسلم أن لا يبخل عن الذائدين عن حياض الأمة بالنصر والاستنصار، بالدعاء وغير الدعاء من المستطاع.

وإن الله سبحانه جاعل في دعاء المجاهدين لأنفسهم، وفي دعاء القاعدين للمجاهدين خيراً عظيماً. ولكل منهما أصل أصيل في صريح القرآن وصحيح السنة وعمل الصالحين من سلف هذه الأمة.

فأما دعاء المجاهدين لأنفسهم بالثبات والنصر فهو سنة ثابتة عن نبينا صلى الله عليه وسلم في مواطن المواجهة، كدعائه صلى الله عليه وسلم يوم بدر، الذي جاءت الإشارة إليه في قوله تعالى في الأنفال:

{ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (9) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (10) } [الأنفال]

وفي مواطن أخرى غير بدر يأتي تفصيلها في ثنايا هذا البحث إن شاء الله.

وهو أيضاً سنة قديمة للأنبياء الذين استجابوا لربهم فيما كلفهم به من جهاد عدوهم، كالذي رأيناه في الآيات التي أدرنا حولها الوقفات من آل عمران، وفيها: { وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (147) } فإن الله تعالى قال بعدها: { فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}

ومثلها ما حكاه الله تعالى في سورة البقرة، عن دعاء جيش طالوت في مواجهة جيش عدو الله جالوت، فقال: { وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (250)} فإن الله تعالى قال بعدها: { فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ}.

نقل ابن عساكر في ترجمة العابد الزاهد الفقيه الثقة " محمد بن واسع المتوفى سنة: 123هـ ، عن أحمد بن سيّار قال: محمد بن واسع الأزدي بصري الأصل ...... وكان أحد المعدودين في العبادة ممن يستنصر به ويرجى مشهده ...... وذكـِر لنا أنه غزا مع قتيبة بن مسلم، فأصابتهم شدة حتى خافوا على أنفسهم الهلاك. قال قتيبة: ويلكم انظروا محمد بن واسع. فطـُلب فلم يُقدر عليه، حتى وجدوه في صحراء قائما على ركبتيه يدعو ويشير بأصبعه. فأخبـِر بذلك قتيبة، فقال: احملوا على القوم، فإن الله لا يضيع جيشا فيهم محمد بن واسع. فقال بعض رؤساء العسكر: إنا لم نر عند هذا الرجل الذي طلبتَ كثيرَ قوة، إنما كان يدعو ويشير بأصبعه.

فقال: لأصبعُه الذي أشار أحَب إلي من ألف فارس.[[87]](#footnote-88)

هذا، وأما دعاء القاعدين لإخوانهم المجاهدين فإنه يُذكرنا دعاء المسلمين في المدينة لجيش مؤتة الذي سيَّره النبي صلى الله عليه وسلم في السنة الثامنة من الهجرة، بقيادة زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى ناحية البلقاء من أرض الشام.

كانت عدة جيش مؤتة نحواً من ثلاثة آلاف، ولم يخرج النبي صلى الله عليه وسلم فيه، لأنه كان عبارة عن سرية لها هدف محدد هو أن يؤدبوا قتلة الحارث بن عمير الأزدي الذي كان يحمل كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عظيم بُصرى.

فلما تحرك الجيش إلى وجهته خرج الناس في وداعه، فكان مما قال المودِّعون: صحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا صالحين .

قلت في نفسي وأنا أطالع هذا الدعاء: لقد كان لهذا الدعاء بركة ظاهرة للعيان، فقد صحبهم الله بالنصر والعناية، ودفع عنهم ما لا قبل لهم بدفعه، وردهم إلى المدينة صالحين سالمين.

وذلك أن الجيش المبارك البالغ ثلاثة آلاف، لقي عدواً يبلغ نحو مائتي ألف من الروم ونصارى العرب.

وما ثلاثة آلاف في مائتي ألف إلا كمركب في لجة يعلوه موج من فوقه موج، ولكنها ثمرة صدق عزائمهم، ويقين قلوبهم، وثبات أقدامهم، ودعوات من وراءهم.

ووقع القتال، وخاض المسلمون المعركة على مدى يومين، وانتهى اللقاء نهاية لا تزال أعجوبة الدهر في عالم المواجهات العسكرية، فقد كانت خسائر المسلمين لا تعدو اثني عشر شهيداً، في حين لا يُعلم عدد القتلى في أعدائهم، وحسبنا أن نعلم أنه قد اندقت في يد خالد بن الوليد رضي الله عنه، تسعة أسياف، كلما كَلَّ في يده سيف أو انكسر تناول آخر.

أجل إنها بركة الدعاء: صحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا صالحين .

الله سبحانه هو الذي تولاهم ودفع عنهم وردهم صالحين سالمين.

**الدعاء خصوصية للأمة.**

الدعاء عُدّة عظيمة في مواجهة البلاء ومواجهة الأعداء، يملكها اليوم المسلمون وحدهم، دون غيرهم من صنوف الأعداء وملل الكفر- اللهم إلا في حالة الاضطرار، فإن الله تعالى امتن مراراً على المشركين بإجابة دعائهم عندما يحدق بهم الهلاك، فقال سبحانه:

{ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (65) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (66)} [العنكبوت].

ومثلها في كل من يونس[[88]](#footnote-89) ولقمان[[89]](#footnote-90) والإسراء[[90]](#footnote-91) وغيرها.

والسر في ذلك، والله أعلم، توافر الإخلاص من المشركين في لحظة الاضطرار، كما شهد لهم بذلك القرآن في الآيات المشار إليها.

فلله در الإخلاص ما أعظم شأنه!!

أما فيما سوى حالة الاضطرار فإن الدعاء ميزة استراتيجية فريدة يتمتع بها المسلمون وحدهم، ولا سبيل لغيرهم من أعدائهم أو مخالفيهم إلى أن يجاروهم أو يدانوهم فيها، بل إن دعاء أهل الباطل لأنفسهم بالنصر على أهل الحق، يؤول إلى دعاء منهم لأهل الحق على أهل الباطل، أو بعبارة أخرى: يؤول إلى دعاء منهم على أنفسهم لصالح المؤمنين.

جاء في تفسير قوله تعالى: { إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال : 19]: ( كان المستفتحَ أبو جهل، فإنه قال حين التقى القوم: اللهم أينا كان أقطع للرحم، وآتانا بما لا نعرف، فاحْنِه[[91]](#footnote-92) الغداة. فكان ذلك استفتاحَه، فأنزل الله: { إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح } إلى قوله:

{ وأن الله مع المؤمنين } )[[92]](#footnote-93)

أجل الدعاء ميزة استراتيجية فريدة يتمتع بها المسلمون، ولكن المسلمين اليوم يزهدون في هذه الميزة، ولا يَقدرونها قدرها، ولا يُنزلونها منزلتها التي تليق بها، ولا يستثمرونها الاستثمار الأمثل قي مواجهة ظلم أعدائهم، وجورهم الفاحش، وعدوانهم المنكور.

ولعل السر في هذه الزهادة التي يبديها المسلمون، في هذه العُدة التي تدفع عنهم في وقت الشدة، أنها ليست من العُدة المادية المحسوسة التي تستقطب اهتمامات القادة والمخططين الذين تحتم عليهم دراساتهم وحساباتهم المادية أن يُعْنـَوا بإعداد وحشد القوة المادية التي تكافئ قوة العدو، فيذهَلون عن هذه العُدة الإيمانية المعنوية الهائلة الجبارة، وهي الدعاء.

وإنما نقول: إن الدعاء عدة وقوة جبارة، لأنه في الحقيقة استعداء جبار السماوات والأرض على عدونا، واستنصار به سبحانه، على ذلك العدو.

ومن ذا الذي يستطيع أن يقاوم قوة من له القوة جميعاً، سبحانه؟!!

**الجمع بين العُدتين.**

نعم، الدعاء عُدة معنوية جبارة، ولكنها لا تغني شرعاً عن الإعداد المادي، كما أن العدة المادية مهما كانت ضارية وضاربة، ومهما كانت عظيمة كمّاً ونوعاً، فإنها لا تغني عن العدة الإيمانية، فلا بد للمسلمين من الجمع بينهما في درء كيد وعدوان الأعداء.

هكذا علمنا القرآن، وبهذا أتت سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، بل سيرة إخوانه من الأنبياء السابقين الذين قال الله عنهم: { أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ}. [الأنعام : 90]

إن القرآن الذي أمرنا الله تعالى فيه باستقصاء المستطاع في إعداد العدة المادية في قوله تعالى: { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} [الأنفال : 60]

قد أمرنا الله تعالى فيه أيضاً أن نقرن ذلك بلزوم العُدة المعنوية المتمثلة بصلة القلوب بالله، ذكراً ودعاءً وضراعة وطاعة، وصبراً ومصابرة، واحتسابَ أجر واتقاءَ وزر، وأن نتـَمَثـُّلِ هذه المعاني والمقاصد في النيات والضمائر، فقال سبحانه: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (45) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (46) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (47)} [الأنفال]

وقال سبحانه: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (200) [آل عمران]

وقال سبحانه: { وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا(22)} [الأحزاب].

وقال سبحانه: { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلا إِلا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (120) وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (121)} [التوبة].

وقال سبحانه: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (11) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (13)} [الصف].

وقد أسلفنا كيف أن الله تعالى قد أخبرنا عن جهاد المجاهدين من الأنبياء السابقين وخيار أممهم، وكيف أنهم جمعوا بين العُدتين، المادية والإيمانية.

فأما المادية فبحشد وتجييش الجموع الغفيرة والألوف الكثيرة التي دل عليها قوله سبحانه: { وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ} [آل عمران:146]

وأما المعنوية، فبالصبر والتوبة والدعاء والذكر الذي دل عليه قوله: { فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (147)} [آل عمران] .

**التأصيل الإيماني للدعاء.**

التأصيل الإيماني للدعاء ينطلق من يقين المؤمن بأن مقاليد السموات والأرض ومن فيهما وما فيهما وما بينهما بيد الله سبحانه.

وأن كل خير ترتجيه فأمره إلى الله، وأن كل شر أو عدو تتقيه فأمره بيد الله، وأن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك.

وأنه سبحانه قادر على أن يجعل من عدوك اللدود ولياً حميما ونصيراً وظهيراً، وكم قد فعل.

وها نحن نقرأ في كلام الله تعالى: { عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الممتحنة 7]

ولا يصح أن يشوب هذا اليقين أي شائبة من شك، ولا أن يتسلل إلى هذه القناعة أي قدر من تردد.

وإياك إياك أخي المسلم أن يمنعك من الدعاء بالشفاء من مرض عضال، أو باليسار بعد فقر مدقع، أو بالعلم والفتح بعد جهل مطبق، أو بالنصر والعزة بعد هزيمة منكرة وذل مهين، أو بالهداية بعد ضلال بعيد، لا يمنعنك من الدعاء بشي من ذلك ونحوه توهُّـمُك أن ذلك بعيد المنال.

نعم هو بعيد المنال إذا نسبته إلى قدرتك وأدواتك وإمكاناتك، فأما إذا نسبته إلى قدرة الله فلا حدود ولا قيود، وذلك من منطلق اليقين بأنه سبحانه على كل شيء قدير.

وإن من سوء الأدب مع الله سبحانه أن تستكثر على قدرته ما تستكثره على قدرتك، كأنك تظن به العجز عما تعجز عنه، وإن من حرمان العبد من الإجابة، بل من سوء الأدب في الدعاء أن يدعو العبد بما يستبعد إجابته في قرارة نفسه.

وقد روى أحمد في مسنده، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال:

( ....... فإذا سألتم الله عز وجل أيها الناس فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة)[[93]](#footnote-94)

وهذا الحديث وإن كان في سنده مقال ، فإنه يتقوى بما رواه الترمذي في سننه بسند حسن، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ( ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة)[[94]](#footnote-95)

ثم إن المعنى صحيح ثابت في حديث مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه،

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: ( إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلاَ يَقُلِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ. وَلَكِنْ لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَتَعَاظَمُهُ شَيءٌ أَعْطَاهُ ).[[95]](#footnote-96)

فمنطلق الدعاء اليقين بأن الله تعالى بيده ملكوت كل شيء، وقدير على كل شيء، وفعال لما يريد.

هذا بالإضافة إلى اليقين بأنه سبحانه يحب أن يُدعَى، ويأمر بذلك ويَعِد الإجابة.

قال سبحانه: { وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر60]

وقال سبحانه: { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة 186]

بل قد جعل الله سبحانه من حقيقة سماعه للدعاء وقدرته وحده على الإجابة، دليلاً وحجة عل المشركين في بطلان شركائهم المزعومين الذين لا يسمعون ولا يستجيبون، فقال سبحانه: (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (13) إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ } [فاطر 13،14]

**غرائب الوقائع في إجابة الدعاء**

أفلا تغري كل هذه الحقائق المسلمين بالإقبال على الدعاء والاجتهاد فيه، وخصوصاً عندما يواجه المسلمون، أو يواجه المسلم من الشدائد ما تحار فيه حيلته، أو من البأس ما تعجز عنه قدرته، أو من الهم ما يضيق عن حمله صدره، أو من العوز ما يقصر عن سده دخله، أو من المرض ما ييأس من شفائه طبه، فعندئذ ليس له إلا أن يقول: يا رب، يا الله ....

فإذا صدقت بالدعاء لهجته، وانفعلت به مهجته، وصحت به عزيمته وعظمت به ثقته، فإنه سيجد من عجائب الإجابات ما يزيده بربه حباً وقرباً ويقيناً، حتى يرى عياناً أن الله سميع بصير، وأن الله على كل شيء قدير، بعد أن كان يعلم ذلك من قبل علماً فحسب.

فتنقله إجابة الدعاء من رتبة علم اليقين إلى رتبة عين اليقين. وليس الخبر كالعيان.

وقد حكى لنا القرآن من غرائب وقائع إجابة العليم القدير سبحانه، دعاءَ الأنبياء والمرسلين وغيرهم من عباد الله الصالحين، ما يحفز كل مسلم على أن يجتهد في الدعاء ويستكثر منه ما استطاع، متوسلاً به إلى كل أمر وكل منفعة، دينية أو دنيوية، خاصة أو عامة، سواء أكان ذلك من قبيل الاستنصار على الكافرين، أو كان من قبيل سائر مصالح الدنيا والدين.

**إجابة دعوة نوح عليه السلام.**

فهذا نوح عليه السلام، طال مكثه في دعوة قومه، وطال صبره على تكذيبهم وصدودهم واستهزائهم، إلى أن أوحى الله إليه: { أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلا مَنْ قَدْ آمَنَ}. [هود : 36]

فعندئذ دعا نوح على قومه دعوته الشهيرة، وكان مما قال فيها: { أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ} [القمر : 10]

فجاءت الإجابة العجيبة البالغة من الغرابة غايتها، وعلى الفور ، كما يدل عليه العطف بالفاء في قوله: { فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (11) وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (12) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (13) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (14)} [القمر ]

**ودعوات إبراهيم عليه السلام.**

وهذا إبراهيم أبو الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام، يأمره الله تعالى وولده إسماعيل ببناء البيت، فيبنيان ويدعوان، كما قص الله علينا في قوله: { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129)} [البقرة]

وجاءت الإجابة العجيبة التي لا تزال قائمة مشهودة، فقد جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، وبعث في ذرية ولده إسماعيل الرسولَ الذي به تحققت الإجابة، وهو النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ابنُ عبد الله الهاشمي القرشي العدناني الذي ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل، عليهم وعلى جميع الأنبياء الصلاة والسلام.

وقد جاء نبينا صلى الله عليه وسلم بعد دعوة إبراهيم عليه السلام بألوف السنين ليقول عن نفسه:

( أنا دعوة أبي إبراهيم)[[96]](#footnote-97)

وقبل ذلك دعا إبراهيم عليه السلام لموضع البيت أن يكون بلداً آمناً مرزوقاً، فقال: { .... رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [البقرة126]

وما تزال مكة وزوار كعبتها يشهدون بركة هذه الدعوة، حيث يجبى إليها ثمرات كل شيء من أطراف الدنيا، وليست بذات ثمرة.

**دعوة أيوب عليه السلام.**

وهذا نبي الله أيوب عليه السلام، كان في نعمة ورخاء وحرث ونسل، كثير العيال عريض المال، ثم سُلب ذلك كلَّه، هلك ماله ومات أولاده، ثم ابتلي في جسده بأنواع البلاء، حتى لم يبق منه عضو إلا أصابه من البلاء، إلا قلبه ولسانه يذكر الله تعالى بهما.

وطال عليه البلاء سنين حتى مله الجليس واستوحش منه الأنيس، وجفاه الأقرباء، ولم يبق معه إلا امرأته صابرة محتسبة تقوم على خدمته وتمريضه حتى ضعفت عن ذلك قوتها، وضاقت عنهما نفقتها.

وعند ذلك دعا أيوب ربه فقال كما قص الله تعالى في سورة الأنبياء:

{وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83)}

وجاءت الإجابة عاجلة، وعجيبة أيضاً، حيث قال سبحانه في الآية التالية: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (84)}

فأما أنها استجابة عاجلة، فقد دلت عليها فاء الفورية في قوله: { فاستجبنا}.

وذكر ابن كثير في قصص الأنبياء أن أيوب عليه السلام عُوفي من كل داء وسقم فور اغتساله من الماء الذي فجره له الله سبحانه حين قال له: {ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ} [ص: 42]

حتى إن امرأته لم تعرفه ساعة لقيـَتـْه، وذلك من تمام عافيته بعد طول عظيم بلائه.

وأما وجه العجب في الإجابة، بالإضافة إلى تلك الفورية، ففي قوله تعالى: { وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ} فقد نقل ابن كثير عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن الله سبحانه رد عليه مَن مات من ولده بأعيانهم، وزاده عليهم مثل عددهم.

أجل، إنَّ الله على كل شيء قدير.

**دعوة زكريا عليه السلام.**

وهذا نبي الله زكريا عليه السلام، تزوج بامرأة عاقر، فعاشا بلا ولد حتى أسنـَّا، فأما زكريا عليه السلام فوهن عظمه واشتعل رأسه شيبا، وأما امرأته فاجتمع عليها العُقر والضعف وتقدم السن.

وكان زكريا عليه السلام قد كفل مريم ابنة عمران التي نذرتها أمها لبيت المقدس، فكان كلما دخل عليها مكان تعبدها يجد عندها فاكهة طرية في غير ميعادها، فيسألها عن ذلك فتقول: {هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [آل عمران: 37] مما أطمع زكريا عليه السلام، وحرضه على أن يدعو ربه أن يرزقه الولد ولو مع العجز والعُقر، فإن الذي يرزق مريم بلا وسائط ولا أسباب، قادر على أن يرزقه الذرية ولو من عجوز عقيم.

قال سبحانه في حكاية ذلك في سورة آل عمران: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (38)} فجاءت الإجابة سريعة وعجيبة أيضاً.

فأما سرعتها فمن فاء الفورية في قوله تعالى في الآية التالية: { فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (39)}

وأما غرابتها فلأن زكريا عليه السلام كان حين دعا طاعناً في السن، وكانت امرأته مثله مع العُقر، حتى ليستعجب إذ بشر بالإجابة ويستفهم فيقول: { رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} [آل عمران: 40]

**دعوة يونس عليه السلام.**

وليس بأدنى من ذلك غرابة وعَجَباً إجابة الله تعالى دعوة عبده ورسوله يونس عليه السلام، حين التقمه الحوت فلم يكسر له عظما ولم يخدش له جلداً.

ووجد يونس عليه السلام نفسه في ظلمة جوف الحوت في جوف البحر في جوف الليل {فنادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } [الأنبياء: 87]

فأجاب الله تعالى دعوته إجابة عجيبة عاجلة، فقال في الآية التالية: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ } [الأنبياء: 88]

وفي قوله: { وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ} إغراء لكل مؤمن بأن يدعو ربه في كل كرب وكل شدة مهما كانت محدقة مطبقة، فإنه سبحانه على كل شيء قدير لا يتعاظمه شيء أعطاه.

{إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [آل عمران: 47] .

وما أحرانا أن نتعلم من هذا القصص الحق الذي يوثقه القرآن، الاستعانة على كل أمر بالدعاء، خصوصا في أوقات الشدائد والمكائد، عسى الله سبحانه أن يبطل كيد الكائدين، ويهلك أئمة الكفر وجنوده، ويجعل الغلبة للمؤمنين، وهو سبحانه على كل شيء قدير.

أجل إن على المسلمين أن يُعِدوا سلاح الدعاء في جملة ما يُعدون لمواجهة عدوان المعتدين وطمع الطامعين وحقد الحاقدين وكيد الكائدين، من مختلف الملل والأقطار والأعراق، الذين ينثالون من كل صوب، ويشعلون في كل جهة جبهة، ويتداعَون تداعيَ الأكلة إلى قصعتها، ويتنافسون فينا، كلٌ يريد أن يكون صاحب الحظ الأوفر من دمائنا وديارنا وثرواتنا، بل ومن قناعاتنا وولاءاتنا.

وكل ذلك يتطلب مضاعفة الجهد في الإعداد من كل صنوف القوة، ومن ذلك صدق اللهجة في الدعاء بهدف تثبيت القلوب عند الفتن، وتثبيت الأقدام عند اللقاء، وإبطال كيد العدو واتقاء شره.

فإذا ما أقبل المسلمون على الدعاء فصدقت فيه لهجتهم، وعظمت به ثقتهم، وحققوا شروطه وآدابه **القلبية** من حيث حضورُ القلب واليقين بالإجابة، **والقولية** من قبيل حمد الله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، بدءاً وختاماً، ومن حيث مجانبة الاعتداء في الدعاء، **والعملية** من حيث الأخذ بالأسباب التي أمر الشرع بالأخذ بها، ومن حيث تحري أسباب الإجابة في الأوقات والهيئات والأحوال المخصوصة.

أقول: إذا أقبل المسلمون على الدعاء بشروطه وضوابطه وآدابه فليبشروا بالإجابة، فإن الذي يدْعون رحيم ودود، وقريب مجيب، وهو سبحانه الذي وعد بالإجابة فقال: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر: 60]

وهو سبحانه القائل: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة: 186]

**إجابة دعوات سيد المرسلين**. صلى الله عليه وسلم

ولئن كنا قد قصصنا نماذج من تحقيق هذا الوعد الإلهي لثلة من المرسلين السابقين، فماذا عن دعوات سيد المرسلين وخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم؟.

هلمَّ فلننظر في إجابة دعاء سيد الأولين والآخرين، الذي كان خليلَ الله كما كان إبراهيم خليلا، وكليمَ الله كما كان موسى كليماً، وزاده الله تعالى عليهما فخصه بالرؤية ليلة المعراج كما قرره ابن عباس رضي الله عنهما، ونقله الحافظ ابن حجر عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى[[97]](#footnote-98)، كما نقله الإمام النووي على أنه القول الراجح عند أكثر العلماء[[98]](#footnote-99).

فقد كان له صلى الله عليه وسلم من الدعوات المستجابات على نحو من السرعة والغرابة، ما يحمل كلَّ مسلم يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أسوته الحسنة، على أن يجتهد في الدعاء والصدق فيه ما وسعه الاجتهاد.

وقد جاء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوام من صالحي أمته، من جيل الصحابة ومن بعدهم، فكان لهم من الدعوات المستجابات ما لا يقل عجبا وروعة وسرعة عما ذكرناه آنفاً عن بعض أنبياء بني إسرائيل.

وهلم فلننظر أولاً إلى نماذج من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم، وإجابة الله تعالى له.

**دعاؤه صلى الله عليه وسلم بالنصر في الحرب.**

وأول ما يطالعنا من ذلك دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنصر يوم بدر، كما أخرجه مسلم في صحيحه بسنده عن عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَة عَشَرَ رَجُلا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقِبْلَة، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَة مِنْ أَهْلِ الإِسْلامِ لا تُعْبَدْ فِي الأَرْض. فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ.

فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: { إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنْ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ } فَأَمَدَّهُ اللَّهُ بِالْمَلائِكَةِ.

قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ - وهُوَ سِمَاكٌ الْحَنَفِيُّ، أحد رجال سند الحديث -: فَحَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنْ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ، إِذ سَمِعَ ضَرْبَة بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ: أَقْدِمْ حَيْزُومُ. فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ وَشُقَّ وَجْهُهُ كَضَرْبَةِ السَّوْطِ فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ. فَجَاءَ الأَنْصَارِيُّ فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: (صَدَقْتَ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ) فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ وَأَسَرُوا سَبْعِينَ[[99]](#footnote-100)

ويوم الأحزاب الذي انجلى عن نصر رباني باهر دون أن يكون للمسلمين فيه كر ولا فر وإنما هو الدعاء الذي جاء خبره في الصحيحين وغيرهما، عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما قال: دعا رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم الأحزاب على المشركين فقال: ( اللهم منزل الكتاب سريع الحساب، اللهم اهزم الأحزاب اللهم اهزمهم وزلزلهم )[[100]](#footnote-101)

فهزمهم الله بجند من عنده، دون أن يباشر المؤمنون قتالاً، وإنما كان نصراً ربانياً بادياً غير مستور بشيء من أعمال البشر وأسبابهم، اللهم إلا الدعاء.

ولقد امتن الله سبحانه بذلك النصر والفرج الجلي من تلك الشدة الخانقة المطبقة، فقال سبحانه في الأحزاب: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (9) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالا شَدِيدًا(11)} [الأحزاب]

وفي موضع آخر من السورة يبين سبحانه كيف أنه تولى النصر بنفسه، وتولى بنفسه سبحانه رد المشركين من الأحزاب، وتولى بنفسه سبحانه إذلال بني قريظة بالأسر، وإذعانهم للقتل، وتولى بنفسه سبحانه تمليك المسلمين حصن بني قريظة وأراضيَهم، فقال سبحانه: { وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (25) وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (26) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (27)}

إن اليقين الراسخ بهذه الحقيقة من أهم حيثيات الحث على الدعاء والتحريض عليه.

**دعاؤه صلى الله عليه وسلم، على المشركين بمكة.**

ولقد كان الله عَوَّد رسوله صلى الله عليه وسلم إجابة دعائه من قبل منذ كان في مكة.

فكان ربما يثقل عليه البلاء ويشتد الإيذاء، ويتجاوز المعتاد، فيدعو رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فيستجيب الله الدعاء، ويكشف البلاء والإيذاء.

روى الشيخان عَنْ عبد الله بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ:

بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ، وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ، وَقَدْ نُحِرَتْ جَزُورٌ بِالأَمْسِ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى سَلى جَزُور بَنِي فُلانٍ فَيَأْخُذُهُ فَيَضَعُهُ على ظهر مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ؟ فَانْبَعَثَ أَشْقَى الْقَوْمِ - وَهُوَ عُقْبَة بْن أَبِي مُعَيْطٍ - فَأَخَذهُ. فَلَمَّا سَجَدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفيْهِ. قَالَ: فَاسْتَضْحَكُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَمِيلُ عَلَى بَعْضٍ – وفي رواية البخاري: (فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ وَيُحِيلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ) - وَأَنَا قَائِمٌ أَنْظُرُ. لَوْ كَانَتْ لِي مَنَعَةٌ طَرَحْتُهُ عَنْ ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَاجِدٌ مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ، حَتَّى انْطَلَقَ إِنْسَانٌ فَأَخْبَرَ فَاطِمَة، فَجَاءَتْ وَهِيَ جُوَيْرِيَةٌ فَطَرَحَتْهُ عَنْهُ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ تشتمُهُمْ. فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلاتَهُ رَفَعَ صَوْتَهُ ثُمَّ دَعَا عَلَيْهِمْ؛ وَكَانَ إِذَا دَعَا دَعَا ثَلاثًا وَإِذَا سَأَلَ سَأَلَ ثَلاثًا؛ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ. ثَلاثَ مَرَّاتٍ. فَلَمَّا سَمِعُوا صَوْتَهُ ذَهَبَ عَنْهُمْ الضِّحْكُ وَخَافُوا دَعْوَتَهُ. ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتبَةَ وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ وَعُقْبَةَ ابْنِ أَبِي مُعَيْطٍ. وَذكَرَ السَّابِعَ وَلَمْ أَحْفَظْهُ. فَوَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحَقِّ لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ سَمَّى صَرْعَى يَوْمَ بَدْرٍ، ثُمَّ سُحِبُوا إِلَى الْقَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ.[[101]](#footnote-102)

وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على قريش مرة أخرى جاء ذكرها في الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه و سلم دعا قريشا إلى الإسلام فأبطؤوا عليه. فقال:

(اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف). فأخذتهم سنة، فحصَّتْ[[102]](#footnote-103) كل شيء حتى أكلوا الميتة والجلود، حتى جعل الرجل يرى بينه وبين السماء دخاناً من الجوع. قال الله عز و جل { فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين . يغشى الناس هذا عذاب أليم }. قال: فدعَوا: { ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون }. قال: فكُشِف. ثم عادوا في كفرهم، فأخذهم الله يوم بدر.[[103]](#footnote-104)

هذا، ومن عجائب إجابة الله رسوله صلى الله عليه وسلم في دعائه على بعض من أفحش عليه في العداوة والأذى، ما ذكره جُلُّ أهل التفسير والمصنفون في الخصائص والمعجزات النبوية، وبعض أهل السنن، وأهل الغريب وشراح الحديث، بل وأهل المصنفات الفقهية، أن عتبة بن أبي لهب - وكانت تحته ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم - أراد الخروج إلى الشام، فقال: لآتين محمدا فلأوذِينـَّه. فأتاه فقال: يا محمد، هو كافر بالنجم إذا هوى وبالذي دنا فتدلى. ثم تفل في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وردَّ عليه ابنته وطلقها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ( اللهم سلط عليه كلبا من كلابك.) فرجع عتبة إلى أبيه فأخبره.

ثم خرجوا إلى الشام فنزلوا منزلاً، فأشرف عليهم راهب من الدير فقال لهم: إن هذه أرض مَسبَعة. فقال أبو لهب لأصحابه: أعينونا يا معشر قريش، فإني أخاف على ابني دعوة محمد. فجمعوا جمالهم وأناخوها حولهم وأحدقوا بعتبة.

فجاء الأسد يشتمُّ وجوههم حتى ضرب عتبة فقتله.[[104]](#footnote-105)

وقد كان ابن أبي لهب هذا يكنى: أبا الواسع.

وفي تلك الحادثة قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

سائل بني الأصفر إن جئتهم ما كان أنباء أبي الواسع

لا وسع الله له قبره بل ضيق الله على القاطع

رحم نبي جده جده يدعو إلى نور هدى ساطع

فاستوجب الدعوة منه بما بُين للناظر والسامع

أن سلط الله بها كلبه يمشي الهوينا مشية الخادع

حتى أتاه وسط أصحابه وقد علتهم سِنة الهاجع

فالتقم الرأس بيافوخه والنحر منه فغرة الجائع

أسلمتموه وهو يدعوكم بالنسب الأدنى وبالجامع

والليث يفريه بأنيابه منعفرًا وسط الدم الناقع

لا يرفع الرحمن مصروعكم ولا يوهِّن قوة الصارع

من يرجع العام إلى أهله فما أكيل السبع بالراجع

قد كان فيه لكم عبرة للسيد المتبوع والتابع

من عاد فالليث له عائد أعظم به من خبر شائع.[[105]](#footnote-106)

**دعاؤه صلى الله عليه وسلم لأعدائه.**

هذا، وكما قد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعض من أوغل وبالغ في العداوة والأذى فاستجيب له، فقد دعا صلى الله عليه وسلم لبعض أعدائه ومناوئيه فاستجيب له أيضاً.

فمن المعلوم في السيرة أنَّ ثقيفاً آزرت هوازن ضد النبي صلى الله عليه وسلم في حنين، فلما هزمهم الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم، دخلتْ ثقيف حصن الطائف.

وتعقبهم النبي صلى الله عليه وسلم بجيشه فوجدهم قد تحصنوا بحصونهم، فضرب عليهم الحصار نحوًا من عشرين ليلة ولم يؤذن له بالفتح، وكانت ثقيف قد أعدوا من المؤن ما يكفيهم سنة، وأقاموا الرماة على أسوار الحصن يرمون المسلمين.

فلما لم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم انصرف عنهم، فقال له بعض أصحابه: يا رسول الله، أحرقتنا نبال ثقيف فادع الله عليهم. قال: (اللهم اهد ثقيفا). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب. [[106]](#footnote-107)

وقد جاء الخبر في طبقات ابن سعد بلفظ: (اللهم اهد ثقيفا وائت بهم.) [[107]](#footnote-108)

فاستجاب الله تعالى دعاءه لثقيف، فجاء بهم سبحانه، وأخذ بنواصيهم إلى الحق طائعين ببركة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم.

قال أهل السير: قدم وفد ثقيف على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك بنحو من عشرة أشهر، وذلك في رمضان من السنة التاسعة، بعد رجوعه صلى الله عليه وسلم من تبوك، جاؤوا فبايعوا على الإسلام، وأنزلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد ليكون أرق لقلوبهم؛ كما جاء في سنن أبي داود وغيرها.[[108]](#footnote-109)

وقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم بمثل ذلك لقبيلة دوس قوم أبي هريرة رضي الله عنه.

وكان قدم منهم الطفيل بن عمرو الدوسي، على النبي صلى الله عليه وسلم، فأسلم، ثم بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى قومه داعياً إلى الإسلام، فقال الطفيل للنبي صلى الله عليه وسلم: اجعل لي آية. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم نوِّر له. فسطع له نور بين عينيه فقال: أخاف أن يقولوا: مُثلة. فتحول النور إلى طرف سوطه وكان يضيء في الليل المظلم. وكان يقال للطفيل: ذو النور. كما ذكره الحافظ في الفتح.[[109]](#footnote-110)

فذهب الطفيل إلى قومه بتلك الآية البينة، فأسلم أبوه ولم تسلم أمه، وأجابه من قومه أبو هريرة وحده.

فرجع الطفيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو قومه ويستعديه عليهم، فقال: إن دوسا قد هلكت، عصت وأبت فادع الله عليهم . فقال صلى الله عليه وسلم: ( اللهم اهد دوساً وائت بهم ). متفق عليه[[110]](#footnote-111)

ثم استجاب الله دعاء رسوله صلى الله عليه وسلم، فجاءه وفد دوس في عام الوفود، وهو العام التاسع، فبايعوا النبي صلى الله عليه وسلم على الإسلام.

وقد أورد البخاري رحمه الله، حديث وفد دوس في كتاب الجهاد والسَّيَر من صحيحه تحت باب قال فيه: [ باب الدعاء للمشركين بالهدى ليتألفهم]. وهو الباب التاسع والتسعون من كتاب الجهاد والسِّيَر.

وكان قد قال في الباب السابع والتسعين: [باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة]. وقد سبقت الإحالة إلى ذلك الباب في ثنايا الصفحات القليلة الماضية.

قال الحافظ ابن حجر: [ وقوله: (ليتألفهم) من تفقه المصنف، إشارة منه إلى الفرق بين المقامين، وأنه صلى الله عليه و سلم كان تارة يدعو عليهم وتارة يدعو لهم، فالحالة الأولى حيث تشتد شوكتهم ويكثر أذاهم، كما تقدم في الأحاديث التي قبل هذا بباب، والحالة الثانية حيث تؤمَن غائلتهم ويُرجى تألفهم كما في قصة دوس].[[111]](#footnote-112)

هذا، ومعلوم من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم أنه كما دعا على أناس من قومه لشدة أذاهم فاستجيب له كما سبق، فإنه صلى الله عليه وسلم قد دعا لعامة قومه فقال: ( اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون). وقد استجاب الله له ذلك، فدخلوا يوم فتح مكة في دين الله أفواجاً.

**دعاؤه صلى الله عليه وسلم لأصحابه رضي الله عنهم.**

كان ما سبق بعض إجابة الله تعالى دعاء رسوله صلى الله عليه وسلم لأعدائه أو عليهم.

وهلم الآن فلننظر في دعوات نبويات أخريات مستجابات أيضاً في مناسبات، ولكنها دعوات لأصحابه رضي الله عنهم، لعامتهم أو لأناس مخصوصين منهم.

وقد كان في إجابة الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم في تلك الدعوات آيات بيّنات زادت وما زالت تزيد في يقين المؤمنين، لما تشعرهم به من تلاشي المسافات بين الأرض والسماء، مما يرون من قرب الإجابة وقرب المجيب سبحانه.

وذلك يحفز كل مسلم إلى اللجوء إلى الدعاء في الكروب ليكشفها الله، وفي الحروب ليطفئها الله، وفي الفتن ليدفعها الله، وفي الهموم ليفرجها الله، وفي الحاجات ليقضيها الله، وفي الخوف ليُسلـِّم الله، وفي الأمن ورغد العيش ليُتمم الله، ولا يُبَدلَ علينا البسط قبضاً، ولا النماء نقصاً، ولا الأمن خوفاً، ولا النعمة نقمة. آمين.

فما أحرى المسلمين، أفراداً وجماعات، أن يُلِحوا على الله بالدعاء، خصوصاً في أزمنة البلاء، ليكشف الله الضر ويجيب المضطر، ويقهر الأعداء ويثبت الأقدام، ويدفع البلاء ويكشف الغمة ويحفظ الأمة.

ولقد حفظت لنا كتب السنن والسير، من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في مواطن الكرب أو مواطن الاضطرار أو مواطن الحاجة، ومن عجائب إجابة الله دعاءه، ما يغرينا بأن نتخذ من الدعاء سلاحاً وزاداً، وعُدة وعَتاداً، نستدفع به البلاء والضراء، والفتن الهوجاء، وكيد الأعداء، ونستجلب به الهداية والأمن والنصر والرخاء.

ولم لا؟ والداعي محتاج إلى الدعاء، والمدعو يحب أن يُدعى !

لم لا، والداعي عاجز مُعْوز، والمدعو غني كريم قدير. سبحانه؟!

لم لا، والداعي يحب أن يجاب، والمدعو وعد أن يجيب؟!

{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } [البقرة: 186]

وقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم دعوات عظيمات، لأمته أو لبعضها، تـُعد من المعجزات النبوية لَما تبعها من خوارق الإجابات.

**معجزات دعائه صلى الله عليه وسلم في غزوة العسرة.**

ومن ذلك ما كان من أخبار جيش العسرة، وهو جيش غزوة تبوك.

1. **الإطعام من جوع.**

روى مسلم في صحيحه بسنده عَنْ الأَعْمَشِ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَوْ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ [شَكَّ الأَعْمَشُ] قَالَ: لَمَّا كَانَ غَزْوَةُ تَبُوكَ أَصَابَ النَّاسَ مَجَاعَةٌ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ أَذِنْتَ لَنَا فَنَحَرْنَا نَوَاضِحَنَا فَأَكَلْنَا وَادَّهَنَّا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: افْعَلُوا. قَالَ فَجَاءَ عُمَرُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ فَعَلْتَ قَلَّ الظَّهْرُ؛ وَلَكِنْ ادْعُهُمْ بِفَضْلِ أَزْوَادِهِمْ، ثُمَّ ادْعُ اللَّهَ لَهُمْ عَلَيْهَا بِالْبَرَكَةِ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ فِي ذَلِكَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نَعَمْ. قَالَ: فَدَعَا بِنِطـَعٍ فَبَسَطَهُ، ثُمَّ دَعَا بِفَضْلِ أَزْوَادِهِمْ. قَالَ فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَجِيءُ بِكَفِّ ذُرَةٍ. قَالَ: وَيَجِيءُ الآخَرُ بِكَفِّ تَمْرٍ. قَالَ: وَيَجِيءُ الآخَرُ بِكَسْرَةٍ؛ حَتَّى اجْتَمَعَ عَلَى النِّطَعِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ يَسِيرٌ. قَالَ: فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ بِالْبَرَكَةِ ثُمَّ قَالَ: خُذُوا فِي أَوْعِيَتِكُمْ: قَالَ: فَأَخَذُوا فِي أَوْعِيَتِهِمْ حَتَّى مَا تَرَكُوا فِي الْعَسْكَرِ وِعَاءً إِلا مَلَؤوهُ. قَالَ: فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا وَفَضَلَتْ فَضْلَةٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ. لا يَلْقَى اللَّهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فَيُحْجَبَ عَنْ الْجَنَّةِ. [[112]](#footnote-113)

ومعلوم أنه كان من الممكن أن يعمِد النبي صلى الله عليه وسلم إلى الدعاء ابتداءً، ولكن شاء الله تعالى أن يجعل في ذلك مكرمة لسيدنا عمر رضي الله عنه، ودلالة على قوة يقينه، ومنقبة له في أنه سبب في سَوْق تلك البركة للناس، وفي إجراء تلك المعجزة الخارقة التي هي من دلائل نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، المتعددة والمتجددة، وفي تنبيه الناس إلى علو منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ربه سبحانه.

قال النووي رحمه الله عند هذا الحديث من شرح مسلم: وَفِي هَذَا الْحَدِيث عَلَمٌ مِنْ أَعْلام النُّبُوَّة الظَّاهِرَة، وَمَا أَكْثَر نَظَائِره الَّتِي يَزِيد مَجْمُوعهَا عَلَى شَرْط التَّوَاتُر، وَيُحَصِّل الْعِلْمَ الْقَطْعِيَّ. [[113]](#footnote-114)

1. **السقيا بعد عطش**

أجل، وكما أن الله تعالى قد أطعمهم ببركة الدعاء بعد مجاعة في تلك الغزوة - وكان فيها فضيلة لعمر رضي الله عنه - فإن الله سبحانه قد أسقاهم أيضاً في تلك الغزوة بعد عطش شديد، وببركة دعائه صلى الله عليه وسلم، وكان فيها فضيلة لأبي بكر في هذه المرة.

فقد روى أهل الأثر والتفاسير والسير، بأسانيد صحيحة جياد، عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة التي قال الله فيها: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ} [التوبة 117]

فقال عمر رضي الله عنه: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلا فأصابنا فيه عَطـَش، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فـَرْثه[[114]](#footnote-115) فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله، إن الله عز وجل قد عَوَّدك في الدعاء خيرًا، فادع لنا. قال: "تحب ذلك"؟ قال: نعم. فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه، فلم يرجعهما حتى مالت السماء فأظَلَّت، ثم سكبت، فملئوا ما معهم.

قال: ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر.[[115]](#footnote-116)

وصدق الله إذ يقول: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ } [النمل: 62]

1. **النشاط بعد إعياء.**

جاء في مسند أحمد وصحيح ابن حبان وغيرهما من كتب السنة والسيرة، عن فـَضَالَةَ بْنَ عُبَيْدٍ الأَنْصَارِيَّ رضي الله عنه قال:

غَزَوْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَزْوَةَ تَبُوكَ، فَجَهَدَ الظَّهْرِ جَهْدًا شَدِيدًا، فَشَكَوْا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا بِظَهْرِهِمْ مِنْ الْجَهْدِ، فَتَحَيَّنَ بِهِمْ مَضِيقًا، فَسَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ فَقَالَ: مُرّوا بِسْمِ اللَّهِ. فَمَرَّ النَّاسُ عَلَيْهِ بِظَهْرِهِمْ،وهو يقول: اللَّهُمَّ احْمِلْ عَلَيْهَا فِي سَبِيلِكَ، فإِنَّكَ تَحْمِلُ عَلَى الْقَوِيِّ وَالضَّعِيفِ وَعَلَى الرَّطبِ وَالْيَابِسِ، فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ. قَالَ فَمَا بَلَغْنَا الْمَدِينَةَ حَتَّى جَعَلَتْ تنَازِعُنَا أَزِمَّتَهَا.

قَالَ فـَضَالَةُ: فقلت: هَذِهِ دَعْوَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الْقَوِيِّ وَالضَّعِيفِ، فَمَا بَالُ الرَّطْبِ وَالْيَابِسِ؟! فَلَمَّا قَدِمْنَا الشَّامَ غَزَوْنَا غَزْوَةَ قُبْرُسَ فِي الْبَحْرِ فَلَمَّا رَأَيْتُ السُّفُنَ فِي الْبَحْرِ وَمَا يَدْخُلُ فِيهَا عَرَفْتُ دَعْوَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.[[116]](#footnote-117)

ولو قال قائل: أليس قد كان من الممكن أن يبارك الله لهم في الطعام والشراب، والدواب ابتداءً، فلا يصيبهم بأذى مسغبة ولا ظمأ ولا إعياء ظهر؟!

قلنا: بلى، ولكنه سبحانه شاء أن ينبه عباده إلى فقرهم إليه، وأن ما بهم من نعمة أو رخاء أو سعة، فليس عن آلية أحكموها أو قدرة أحرزوها أو نظام ضبطوه، وإنما هو إمداد العزيز الرحيم في كل لحظة وحين.

فإذا ما أبطأ ذلك الإمداد، أو تبدلت تلك الأحوال، عرف المؤمن من أين أتِي، ومن أين يأتي.

فيزيل أسباب المنع، ويدق بالدعاء أبواب العطاء، وسيجد أن مع العسر الواحد يسرين. ولن يغلب عسر يسرين.

وما أروع أن يستشعر المؤمن معية الله بالهداية والنصرة والتسديد والإمداد، يسمع سبحانه الدعاء فيجيب الدعاء، ويحقق الرجاء، ويبسط الرخاء، ويزيل الغمة، خصوصاً إذا كان الدعاء على لسان الأصلح في الجماعة، والأتقى والأنقى في المجتمع.

ولذلك نجد أن كلاً من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، قد رغب إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو بالبركة في الطعام، وأن يدعو بالسقيا، ولم يباشرا ذلك بنفسيهما، كما رغب إليه عامة الجيش أن يدعو للخيل والإبل بعد الجهد والإعياء الذي لحق بها دون أن يباشروا ذلك.

وفي ذلك تعليم للأمة أن يتوسلوا إلى الله تعالى بدعاء الصالحين، فإن دعاءهم أدنى للقبول وأرجى للإجابة.

**استسقاؤه صلى الله عليه وسلم في الجمعة.**

وهذا موطن آخر يسأل فيه بعض الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستسقي لهم، فيستسقي، فيُسقون في الحال. كما في الصحيحين من حديث أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلاً دَخَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِنْ بَابٍ كَانَ وِجَاهَ الْمِنْبَر، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمًا فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلَكَتْ الْمَوَاشِي وَانْقَطَعَتْ السُّبُلُ، فَادْعُ اللَّهَ يُغِيثـُنَا. قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اسْقِنَا اللَّهُمَّ اسْقِنَا اللَّهُمَّ اسْقِنَا.

قَالَ أَنَسُ: وَلا وَاللَّهِ مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ وَلا قـَزَعَةً وَلا شَيْئًا، وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ وَلا دَار. قَالَ: فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ، فَلَمَّا تَوَسَّطَتْ السَّمَاءَ انْتَشَرَتْ ثُمَّ أَمْطَرَتْ.

قَالَ: وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا الشَّمْسَ سِتًّا. ثُمَّ دَخَلَ رَجُلٌ مِنْ ذَلِكَ الْبَابِ فِي الْجُمُعَةِ الْمُقْبِلَةِ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَهُ قَائِمًا فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلَكَتْ الأَمْوَالُ وَانْقَطَعَتْ السُّبُلُ فَادْعُ اللَّهَ يُمْسِكْهَا. قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلا عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ عَلَى الآكَامِ وَالْجِبَالِ وَالآجَامِ وَالظِّرَابِ وَالأَوْدِيَةِ وَمَنَابِتِ الشَّجَر. قَالَ: فَانْقَطَعَتْ وَخَرَجْنَا نَمْشِي فِي الشَّمْس.[[117]](#footnote-118)

أجل، إنها لإجابة عجيبة، إن كان في إنزال المطر أوفي إمساكه، ولا عجب إذا عرفنا السبب، إنه أمره سبحانه الذي قال عنه: {إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [مريم: 35]

**دعاؤه صلى الله عليه وسلم لعموم الأمة**.

هذه الأدعية النبوية المجابة كثيرة للأمة كل الأمة، ولها نظائر لا نزال نعيش ونتقلب في غضون بركتها**،** كدعائه صلى الله عليه وسلم لأمته أن لا يهلكها الله بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهميستبيح بيضتهم ...... وقد استجاب الله تعالى له ذلك وله الحمد.

وقد جاء خبر ذلك في صحيح مسلم عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه قال:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (.... وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي أَنْ لا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ. وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لأُمَّتِكَ أَنْ لا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا - أَوْ قَالَ: مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا - حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا).[[118]](#footnote-119)

فمن بركة دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته أن أعداءها مهما اجتهدوا وكادوا ومكروا في إهلاكها، فإنهم لن يستأصلوها، ولن تزال طائفة منها ظاهرة قاهرة. مصداق حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي رواه مسلم عن عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ رضي الله عنه قال:

َسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ( لا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ، قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى تَأْتِيَهُمْ السَّاعَةُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ).[[119]](#footnote-120)

وهذا بحمد الله أمر ظاهر للعيان مشهود في الواقع، فجزى الله تعالى هذا النبي الكريم الرحيم عن أمته خير الجزاء.

**دعاؤه لآحاد من أصحابه.**

هذا وقد حفظت كتب السنن والسير للنبي صلى الله عليه وسلم دعوات لآحادٍ من أصحابه رضي الله عنهم جميعاً، فجاءت الإجابات عجيبة عاجلة خارقة.

ومن ذلك على سبيل التمثيل لا الحصر:

1. **دَين والد جابر**

وهو عبد الله بن حرام الأنصاري، أحد شهداء أحُد، والد جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، استشهد وعليه دَين، وجاء الغرماء يستوفون من ولده جابر وقت جَداد النخل، ولم يكن في تمر بستانه ما يفي بالدين ولا بشطره ولا بربعه، ففزع جابر إلى النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر.

ولنستمع إليه وهو يحدثنا عن ذلك كما في صحيح البخاري عن جَابِرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ أَبَاهُ تُوُفِّيَ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ، قال: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: إِنَّ أَبِي تَرَكَ عَلَيْهِ دَيْنًا، وَلَيْسَ عِنْدِي إِلا مَا يُخْرِجُ نَخْلُهُ، وَلا يَبْلُغُ مَا يُخْرِجُ سِنِينَ مَا عَلَيْهِ، فَانْطَلِقْ مَعِي لِكَيْ لا يُفْحِشَ عَلَيَّ الْغُرَمَاءُ. فَمَشَى - صلى الله عليه وسلم - حَوْلَ بَيْدَر مِنْ بَيَادِر التَّمْرِ **فَدَعَا**، ثَمَّ آخَرَ، ثُمَّ جَلَسَ عَلَيْهِ فَقَالَ: انْزِعُوهُ. فَأَوْفَاهُمْ الَّذِي لَهُمْ وَبَقِيَ مِثْلُ مَا أَعْطَاهُمْ. [[120]](#footnote-121)

1. **جمل جابر**

وقصة دعائه صلى الله عليه وسلم لجابر بن عبد الله رضي الله عنهما، في شأن جمله، قصة مشهورةأخرجاها في الصحيحين، واللفظ لمسلم عن جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ كَانَ يَسِيرُ عَلَى جَمَلٍ لَهُ قَدْ أَعْيَا، فَأَرَادَ أَنْ يُسَيِّبَهُ. قَالَ: فَلَحِقَنِي النَّبِي صلى الله عليه وسلم، **فَدَعَا لِي** وَضَرَبَهُ، فَسَارَ سَيْرًا لَمْ يَسِرْ مِثْلَهُ. قَالَ – يعني النبيَّ صلى الله عليه وسلم -: ( بِعْنِيهِ بِوُقِيَّةٍ ). قُلْتُ: لاَ. ثُمَّ قَالَ: ( بِعْنِيهِ). فبِعْتُهُ بِوُقِيَّةٍ، وَاسْتَثْنَيْتُ عَلَيْهِ حُمْلاَنَهُ إِلَى أَهْلِي. فَلَمَّا بَلَغْتُ أَتَيْتُهُ بِالْجَمَلِ فَنَقَدَنِي ثَمَنَهُ، ثُمَّ رَجَعْتُ فَأَرْسَلَ فِي أَثَرِي فَقَالَ: ( أَتُرَانِي مَاكَسْتُكَ لآخُذَ جَمَلَكَ؟ خُذْ جَمَلَكَ وَدَرَاهِمَكَ فَهُوَ لَكَ).[[121]](#footnote-122)

فصلى الله وسلم عليه من رؤوف بالمؤمنين رحيم.

1. **النابغة الجعدي**

وقد دعا له النبي صلى الله عليه وسلم فقال: لا يفضض الله فاك. فعاش أكثر من مائة سنة لم تسقط له سن.

جاء في دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني، بسنده عن يعلى بن الأشدق قال: سمعت النابغة بن الجعد يقول: أنشدت رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الشعر فأعجبه:

بلغنا السماء مجدنا وثراءنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فقال صلى الله عليه وسلم: إلى أين المظهر يا أبا ليلى؟ قلت: إلى الجنة. قال: أجل إن شاء الله تعالى. فلما أنشدته:

ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

قال النبي صلى الله عليه وسلم: أجدتَ **لا يفضض الله فاك** .

قال يعلى بن الأشدق:

فلقد رأيته وقد أتى عليه نيف ومائة سنة، وما ذهب له سن. [[122]](#footnote-123)

1. **أم قيس بنت مِحْصَن**

وقصتها في الأدب المفرد للبخاري، وفي المعجم الكبير للطبراني، ومسند أحمد، وسنن النسائي – واللفظ له - عَنْ أَبِي الْحَسَنِ مَوْلَى أُمِّ قَيْسٍ بِنْتِ مِحْصَنٍ، عَنْ أُمِّ قَيْسٍ رضي الله عنها قَالَتْ: تُوُفِّيَ ابْنِي، فَجَزِعْتُ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ لِلَّذِي يَغْسِلُهُ: لا تَغْسِلْ ابْنِي بِالْمَاءِ الْبَارِدِ فَتَقْتلهُ. فَانْطَلَقَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ - تعني أخاها - إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ بِقَوْلِهَا؛ فَتَبَسَّمَ ثُمَّ قَالَ: مَا قَالَتْ **طَالَ عُمْرُهَا**؟! فَلا نَعْلَمُ امْرَأَةً عُمِّرَتْ مَا عُمِّرَتْ. [[123]](#footnote-124)

1. **بُنـَيَّة رافع بن سنان**

ورافع بن سنان صحابي أنصاري أوسي؛ لمَّا أسلم امتنعت امرأته عن أن تـُسلم، وله منها بُنـَيَّة صغيرة، نازعته فيها أمها، فكان دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، الفيصل في ذلك.

روى قصتها أبو داود، والنسائي، والبيهقي في السنن الصغرى - واللفظ له - عن رَافِع بْن سِنَانٍ رضي الله عنه، أَنَّهُ أَسْلَمَ، وَأَبَتِ امْرَأَتُهُ أَنْ تُسْلِمَ، فَأَتَتْ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَت: ابْنَتِي وَهِيَ فَطِيمٌ. فَقَالَ رَافِعٌ: ابْنَتِي. فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم لِرَافِعٍ: اقْعُدْ نَاحِيَة. وَقَالَ لامْرَأَتِهِ: اقْعُدِي نَاحِيَة. قَالَ: وَأَقْعَدَ الصِّبْيَةَ بَيْنَهُمَا. فَقَالَ النبي صلى الله عليه وسلم: ادْعُوَاهَا. فَمَالَتِ الصِّبْيَة إِلَى أُمِّهَا. فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: اللَّهُمَّ اهْدِهَا. فَمَالَتْ إِلَى أَبِيهَا، فَأَخَذهَا رَافِعٌ. [[124]](#footnote-125)

وهذا غيض من فيض آيات الله في إجابة دعوات رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته عامة، أو لبعضها على وجه الخصوص.

**إجابة الله سبحانه دعوات المؤمنين**

ما كان ينبغي لنا أن نغادر هذا الباب، باب الدعاء، حتى نتعرف آيات الله في إجابة بعض دعوات المؤمنين من الصحابة الكرام رضي الله عنهم، أو من التابعين لهم بإحسان على مر الزمان.

وذلك حتى لا يظن ظانّ أنّ خوارق إجابة الدعاء في نوعيتها وفوريتها، مخصوصة بتلك الكوكبة من المصطفين الأخيار الذين اصطفاهم الله لرسالاته واختصهم برحماته من الأنبياء والمرسلين.

وحتى لا يهوّن المسلم من أمر دعائه استبعاداً للإجابة أو يأساً منها، فيحمله ذلك على ترك الدعاء والزهادة فيه.

إن إجابة الدعاء موضع رجاء كل المؤمنين، بل قد أخبرنا الحق سبحانه في القرآن غير مرة أنه يستجيب حتى دعاء الكافرين عندما يدعون ربهم سبحانه في حالة الاضطرار.

وقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يحتج على المشركين بأن الله وحده هو الذي يستجيب لهم عند الكروب، فكيف يعبدون معه غيره؟!

فقال لرسوله صلى الله عليه وسلم: {قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (63) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (64)} [الأنعام]

فإذا كان القريب المجيب سبحانه يستجيب حتى دعاء المشركين عند الكروب فيكشفها، أفلا يغرينا ذلك معاشر المؤمنين بأن نستدفع البلاء بالدعاء؟ وما أثقله من بلاء!!

وقد أمرنا ربنا بدعائه سبحانه ثلاث مرات في سورة واحدة، (سورة غافر) فقال في أولاها: {**فَادْعُوا** اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (14)}

وقال في الثانية: {وَقَالَ رَبُّكُمُ **ادْعُونِي** أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (60)}

وقال في الثالثة: {هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ **فَادْعُوهُ** مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (65)}

كما قد أثنى الله تعالى على خيار عباده بفضيلة الدعاء، فقال سبحانه: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ **يَدْعُونَ** رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (16)} [السجدة]

وقد جعل الله تعالى من أسباب الفوز بالجنة في الآخرة، الاشتغالَ بالدعاء في الدنيا، فقال سبحانه في وصف مجلس من مجالس أهل الجنة:

{وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ(25) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (26) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (27) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (28)} [الطور]

فالدعاء مطلب نفيس في ذاته، ومنزلة سامقة من منازل الإيمان، حتى ولو لم يكن العبد في بلاء يستدفعه، فكيف إذا جمع بين فضل الدعاء وكشف البلاء؟!

وقد حوت كتب التاريخ والتراجم أخباراً غزيرة جداً عن دعاء المؤمنين ربهم في المواطن والمناسبات، وعن إجابات الله تعالى العجيبة في فورها ونوعها، مما يُعد كرامات لأولياء الله سبحانه، ودلائل على تولي الله أولياءه المؤمنين بالنصر والتأييد والفتح والتمكين.

ولا مطمع بالإحاطة بكل ذلك، وعليه فإن ما نذكره من ذلك يعتبر غيضاً من فيض، أو شربة من نمير غزير.

**دعاء واستسقاء عمر رضي الله عنه .**

فمن ذلك دعاء عمر رضي الله عنه عندما أصاب الأمة قحط شديد، في العام الذي يُعرف بعام الرمادة، وذلك في السنة الثامنة عشرة من الهجرة.

نقل الحافظ ابن كثير في تاريخه عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك وغيره: أنه لما كان عام الرمادة في آخر سنة سبع عشرة، وأول سنة ثماني عشرة، أصاب أهل المدينة وما حولها جوع فهلك كثير من الناس، حتى جعلت الوحش تأوي إلى الإنس، ..... حتى أقبل بلال بن الحارث المزني فاستأذن على عمر رضي اله عنه فقال: أنا رسول رسولِ الله إليك، يقول لك رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لقد عهدتك كـَيـِّسا، وما زلت على ذلك، فما شأنك )؟ قال: متى رأيت هذا؟ قال: البارحة.

فخرج عمر فنادى في الناس: (الصلاة جامعة)، فصلى بهم ركعتين، ثم قام فقال: أيها الناس أنشدكم الله هل تعلمون مني أمرًا غيرُه خير منه؟ فقالوا: اللهم لا، وعمّ ذاك؟ فقال: إن بلال بن الحارث يزعم كذا وكذا.

ففطِنوا ولم يفطن. فقالوا: إنما استبطأك في الاستسقاء، فاستسق بنا.

فقال عمر: الله أكبر، بلغ البلاء مدته فانكشف، ما أذن الله لقوم في الطلب إلا وقد رفع عنهم الأذى والبلاء. ..... وأخرج الناس إلى الاستسقاء فخرج وخرج معه العباس بن عبد المطلب، فخطب وأوجز وصلى ثم جثا لركبتيه وقال: اللهم إياك نعبد وإياك نستعين، اللهم اغفر لنا وارحمنا وارض عنا، اللهم عجزت عنا أنصارنا، وعجز عنا حولنا وقوتنا، وعجزت عنا أنفسنا، ولا حول ولا قوة إلا بك، اللهم اسقنا وأحي العباد والبلاد.

ثم انصرف فما بلغوا المنازل راجعين حتى خاضوا الغدران.[[125]](#footnote-126)

**دعوة البراء بن مالك رضي الله عنه.**

وقد كان من المشهورين بإجابة الدعوة البراء بن مالك الأنصاري الخزرجي النجاري رضي الله عنه.

وقد روى الترمذي بسنده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: ( كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يُؤبه له لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب [[126]](#footnote-127)

وقد ذكر ابن تيمية في الفتاوى، والحافظ ابن حجر في الإصابة، وغيرهما من المصنفين في التاريخ والصحابة، أنه كان إذا اشتد الحرب على المسلمين في الجهاد يقولون: يا براء، أقسم على ربك. فيقول: يا رب، أقسمتُ عليك لـَمَا منحتنا أكتافهم. فيهزم العدو. فلما كان يوم تـُسْـتـَر من بلاد فارس انكشف المسلمون، فقالوا: يا براء أقسم على ربك. فقال: أقسم عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم وألحقتني بنبيك. فحمل وحمل الناس معه فقتل مرزبان الزارة من عظماء الفرس وأخذ سلبه فانهزم الفرس، ثم قتل البراء رضي الله عنه [[127]](#footnote-128)

**دعوات العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه**

ومما وقع للعلاء بن الحضرمي ما ذكره ابن تيمية في الفتاوى، وابن كثير في تاريخه، يرويه عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أنه غزا مع العلاء ابن الحضرمي، فعطشوا والحر شديد، وعطشت دوابهم، وذلك في يوم جمعة. قال أنس رضي الله عنه: فلما مالت الشمس لغروبها صلى بنا ركعتين، ثم مد يده إلى السماء وما نرى في السماء شيئاً، قال: فو الله ما حط يده حتى بعث الله ريحاً وأنشأ سحاباً، وأفرغت حتى ملأت الغـُدُر والشعاب، فشربنا وسقينا ركابنا واستقينا.

قال أنس: ثم أتينا عدونا وقد جاوز خليجاً في البحر إلى جزيرة[[128]](#footnote-129)، فوقف العلاء رضي الله عنه على الخليج وقال: يا علي يا عظيم، يا حليم يا كريم، ثم قال: أجيزوا بسم الله. قال أنس: فأجزنا ما يبل الماء حوافر دوابنا، فلم نلبث إلا يسيرًا فأصبنا العدو غِـيلة[[129]](#footnote-130)، فقتلنا وأسرنا وسبينا، ثم أتينا الخليج، فقال مثل مقالته، فأجزنا ما يبل الماء حوافر دوابنا.

ثم ذكر موت العلاء ودفنهم إياه في أرض لا تقبل الموتى، ثم إنهم حفروا عليه لينقلوه منها إلى غيرها فلم يجدوه، وإذا اللحد يتلالأ نوراً، فأعادوا التراب عليه ثم ارتحلوا، وكان العلاء قد دعا أن لا يروا جسده إذا مات. كما ذكره ابن تيمية.[[130]](#footnote-131)

**دعاء سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.**

وذلك كما ذكره ابن كثير في خبر فتح المدائن، فقال:

لما فتح سعد رضي الله عنه ( نهرشير) واستقر بها، وذلك في صفر - يعني من السنة السادسة عشرة - لم يجد فيها أحداً ولا شيئاً مما يغنم، بل قد تحولوا بكمالهم إلى المدائن وركبوا السفن وضموا السفن إليهم، ولم يجد سعد رضي الله عنه شيئا من السفن، وتعذر عليه تحصيل شيءٍ منها بالكلية، وقد زادت دجلة زيادة عظيمة واسودَّ ماؤها، ورمت بالزبد من كثرة الماء بها، وأخبـِر سعد بأن كسرى يزدجرد عازم على أخذ الأموال والأمتعة من المدائن إلى حلوان، وأنك إن لم تدركه قبل ثلاث فات عليك وتفارط الأمر.

فخطب سعد المسلمين على شاطئ دجلة، فحمد الله وأثنى عليه وقال: إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر، فلا تخلصون إليهم معه، وهم يخلصون إليكم إذا شاؤوا، فيناوشونكم في سفنهم، وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه، وقد رأيت أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا، ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم.

فقالوا جميعا: عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل.

فعند ذلك ندب سعد الناس إلى العبور ويقول: من يبدأ فيحمي لنا الفِراض - يعني ثغرة المخاضة من الناحية الأخرى - ليجوز الناس إليهم آمنين؟ فانتدب عاصم بن عمرو وذو البأس من الناس قريب من ستمائة، فأمَّر سعدٌ عليهم عاصم بن عمرو، فوقفوا على حافة دجلة فقال عاصم: من ينتدب معي لنكون قبل الناس دخولاً في هذا البحر فنحمي الفراض من الجانب الآخر؟ فانتدب له ستون من الشجعان المذكورين - والأعاجم وقوف صفوفاً من الجانب الآخر - فتقدم رجل من المسلمين وقد أحجم الناس عن الخوض في دجلة، فقال: أتخافون من هذه النطفة؟! ثم تلا قوله تعالى: {وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً) [ آل عمران:145] ثم أقحم فرسه فيها واقتحم الناس، وقد افترق الستون فرقتين، أصحاب الخيل الذكور، وأصحاب الخيل الإناث.

فلما رآهم الفرس يطفون على وجه الماء قالوا: ديوانا ديوانا. أي مجانين مجانين. ثم قالوا: والله ما تقاتلون إنساً بل تقاتلون جناً.

ثم أرسلوا فرساناً منهم في الماء يلتقون أول المسلمين ليمنعوهم من الخروج من الماء، فأمر عاصم بن عمرو أصحابه أن يُشرعوا لهم الرماح ويتوخوا الأعين، ففعلوا ذلك بالفرس فقلعوا عيون خيولهم، فرجعوا أمام المسلمين لا يملكون كف خيولهم حتى خرجوا من الماء، وأتبعهم عاصم وأصحابه فساقوا وراءهم حتى طردوهم عن الجانب الآخر، ووقفوا على حافة الدجلة من الجانب الآخر، ونزل بقية أصحاب عاصم من الستمائة في دجلة فخاضوها حتى وصلوا إلى أصحابهم من الجانب الآخر فقاتلوا مع أصحابهم حتى نفوا الفرس عن ذلك الجانب.

وكانوا يسمون الكتيبة الأولى: (كتيبة الأهوال)، وأميرها عاصم بن عمرو، والكتيبة الثانية الكتيبة الخرساء وأميرها القعقاع بن عمرو.

هذا كله وسعد والمسلمون ينظرون إلى ما يصنع هؤلاء الفرسان بالفرس، وسعد واقف على شاطئ دجلة.

ثم نزل سعد ببقية الجيش، وذلك حين نظروا إلى الجانب الآخر قد تحصن بمن حصل فيه من الفرسان المسلمين، **وقد أمر سعد المسلمين عند دخول الماء أن يقولوا: نستعين بالله ونتوكل عليه، حسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.**

ثم اقتحم بفرسه دجلة واقتحم الناس لم يتخلف عنه أحد، فساروا فيها كأنما يسيرون على وجه الأرض حتى ملؤوا ما بين الجانبين، فلا يُرى وجه الماء من الفرسان والرجالة، وجعل الناس يتحدثون على وجه الماء كما يتحدثون على وجه الأرض، وذلك لما حصل لهم من الطمأنينة والأمن والوثوق بأمر الله ووعده ونصره وتأييده، ولأن أميرهم سعد بن أبي وقاص أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنه راض، ودعا له فقال: " اللهم أجب دعوته، وسدد رميته " والمقطوع به أن سعداً دعا لجيشه هذا في هذا اليوم بالسلامة والنصر، وقد رمى بهم في هذا اليم، فسددهم الله وسلمهم، فلم يُفقد من المسلمين رجل واحد، غير أن رجلاً واحداً يقال له: (غرقدة البارقي)، زلَّ عن فرس له شقراء، فأخذ القعقاع بن عمروٍ بلجامها، وأخذ بيد الرجل حتى عدله على فرسه، وكان من الشجعان ... ولم يعدم للمسلمين شيء من أمتعتهم غير قدح من خشب لرجل يقال له: (مالك بن عامر)، كانت علاقته رثة فأخذه الموج، فدعا صاحبه الله عز وجل، وقال: اللهم لا تجعلني من بينهم يذهب متاعي. فرده الموج إلى الجانب الذي يقصدونه فأخذه الناس ثم ردوه على صاحبه بعينه.

وكان الفـَرس إذا أعيا وهو في الماء يقيض الله له مثل النشز المرتفع فيقف عليه فيستريح، وحتى إنّ بعض الخيل ليسير وما يصل الماء إلى حزامها، وكان يوماً عظيماً وأمراً هائلاً، وخـَطباً جليلاً، وخارقاً باهراً، ومعجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، خلقها الله لأصحابه رضي الله عنهم، لم يُرَ مثلها في تلك البلاد، ولا في بقعة من البقاع، سوى قضية العلاء بن الحضرمي المتقدمة، بل هذا أجل وأعظم، فإن هذا الجيش كان أضعاف ذلك.

قالوا: وكان الذي يساير سعد بن أبي وقاص في الماء سلمان الفارسي رضي الله عنه، فجعل سعد يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل، والله لينصرن الله وليه ويظهرن الله دينه، وليهزمن الله عدوه، إن لم يكن في الجيش بغي أو ذنوب تغلب الحسنات.

فقال له سلمان: إن الإسلام جديد، ذللت لهم والله البحور، كما ذلل لهم البر، أما والذي نفس سلمان بيده ليَخرجُنَّ منه أفواجاً كما دخلوا أفواجاً.

فخرجوا منه كما قال سلمان لم يغرق منهم أحدا، ولم يفقدوا شيئا.

ولما استقل المسلمون على وجه الأرض خرجت الخيول تنفض أعرافها صاهلة، فساقوا وراء الأعاجم حتى دخلوا المدائن.[[131]](#footnote-132)

**دعاء خبب بن عدي رضي الله عنه.**

ومن ذلك إجابة دعوة خبيب بن عدي رضي الله عنه، وكان المشركون قد أسروه في عملية غدر دبرها بعض قبائل العرب، ثم باعوه لأهل مكة ليقتلوه انتقاما لبعض قتلاهم في موقعة أحد.

فلما خرج به المشركون إلى التنعيم ليقتلوه في الحل، قال لهم خبيب: دعوني أصلي ركعتين. فتركوه فركع ركعتين فقال: والله لولا أن تحسبوا أن ما بي جزع لزدت. ثم قال: اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تبق منهم أحدا.[[132]](#footnote-133)

وفي بعض روايات هذا الحديث أنه لما استقبل الدعاء، لبد رجل بالأرض خوفا من دعائه. وفيها: فلم يحل الحول ومنهم أحد حي غير ذلك الرجل الذي لبد بالأرض.[[133]](#footnote-134)

**دعوة عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.**

ومن ذلك أيضاً دعوة عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، على الوالي الظالم ( زياد بن أبيه).

وذلك أن زياداً كان والياً لمعاوية رضي الله عنه على العراق، وقد نال أهلـَها من ظلمه ما نالهم، فكتب زياد إلى معاوية رضي الله عنه يقول له: إني قد ضبطت لك العراق بشمالي ويميني فارغة، فارع لي ذلك.

وهو يُعرِّض له أن يستنيبه على بلاد الحجاز أيضا.

فلما بلغ ذلك أهل الحجاز جاؤوا إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فشكوا إليه ذلك، وخافوا أن يلي عليهم زياد، فيَعسِفهم كما عسف أهل العراق، فقام ابن عمر رضي الله عنهما، فاستقبل القبلة فدعا على زياد والناس يؤمنون.

جاء في دلائل النبوة للبيهقي أن ابن عمر قال في دعائه: « اللهم إنك تجعل في القتل كفارة لمن شئت من خلقك، فموتاً لابن سمية لا قتلاً » .

فطـُعن زياد بالعراق في يده - أي أصابه الطاعون فيها - فضاق ذرعًا بذلك، واستشار شريحًا القاضي في قطع يده، فقال له شريح: إني لا أرى ذلك، فإنه إن لم يكن في الأجل فسحة لقيت الله أجذم قد قطعت يدك خوفا من لقائه، وإن كان لك أجل بقيت في الناس أجذم فيعير ولدك بذلك، فصرفه عن ذلك.

فلما خرج شريح من عنده عاتبه بعض الناس وقالوا: هلا تركته فقطع يده؟ فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " المستشار مؤتمن ".[[134]](#footnote-135)

... وذكِـر أن زياداً جمع مائة وخمسين طبيباً ليداووه مما يجد من الحر في باطنه، منهم ثلاثة ممن كان يطب كسرى بن هرمز، فعجزوا عن رد القدر المحتوم والأمر المحموم، ودفن بالثوية خارج الكوفة، وقد كان برز منها قاصدا إلى الحجاز أميراً عليها، فلما بلغ خبر موته عبد الله بن عمر قال: اذهب إليك يا ابن سمية، فلا الدنيا بقيت لك، ولا الآخرة أدركت.[[135]](#footnote-136)

ونظائر ذلك كثير في كل عصر وجيل، ولا مطمع في استقصائه، ومن أراد أن يستزيد فليقرأ شيئاً من ذلك في (الفتاوى لابن تيمية)، عند كلامه على كرامات الأولياء،[[136]](#footnote-137)

وليقرأ في كتاب (حياة الصحابة للكاندهلوي ) باب الدعاء.[[137]](#footnote-138)

وفي كتاب ( سُبُل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد) لمحمد بن يوسف الصالحي الشامي، المعروف بـ: (السيرة الشامية).[[138]](#footnote-139)

فقد جاء في هذه الكتب وفي غيرها من عجائب إجابة الدعاء في هذه الأمة ما تهون عنده العجائب التي تروى عن بني إسرائيل.

وكل ذلك مما يحفز المسلم على الدعاء، ويغريه بالإقبال عليه إقبال الموقن، لا إقبال المتردد الذي يجرب ربه سبحانه، ولا إقبال الملول الذي لا يلبث أن يستبطئ الإجابة فيدع الدعاء، فيحرم نفسه بركة الإجابة كما يحرمها أجر الدعاء.

وقد نهينا عن كلا الأمرين، دعاء المتردد ودعاء الملول.

روى مسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (إِذا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلا يَقُلْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ. وَلَكِنْ لِيَعْزِمْ الْمَسْأَلَةَ وَلْيُعَظِّمْ الرَّغْبَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ لا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ).[[139]](#footnote-140)

وروى مسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أيضاً، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ( لا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ) قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الاسْتِعْجَالُ؟ قَالَ: ( يَقُولُ قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدَعُ الدُّعَاءَ).[[140]](#footnote-141)

ومن المعلوم أن الإلحاح على الله بالدعاء من أسباب الإجابة، فإذا رأى العبد أن دعاءه لم يستجب فليحفزه ذلك على المزيد من الدعاء، متحرياً من نفسه شروطه القولية والقلبية.

وما أحسن قول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني لا أحمل هم الإجابة ولكن أحمل هم الدعاء.!

**المبحث السادس: أمل، لا قنوط.**

لعل من أهم عناصر موقف المسلم من المصائب المتتالية على الأمة، ومن تراجع الأمة المتواصل بخـُطاً واسعة متسارعة، من أهم عناصر الموقف الإيجابي المثالي الذي يجب أن يتحلى به المسلم أن لا يُـشرع أروقة نفسه لرياح القنوط وعواصف اليأس والإحباط لتسكن في صدره وتستعمر نفسه.

أجل، إن اطـّراح القنوط ومدافعة الإحباط من أهم مقومات موقف المسلم في هذه الأزمان.

وذلك أننا نرى من سرعة الانحدار في هاوية الهوان ما لا يكاد يُصدق، إن كان في المجال الاقتصادي والعسكري، أو كان في مجال الفكر والتصور والانتماء، بل حتى على مستوى كينونة الأمة وذاتيتها، واستقلالها في هويتها ووجودها، مما لم يكن المرء يتصوره قبل قليل من الزمان.

وأحيانا ترى من جديد الهوان ما لم تكن تتصوره قبله ببضعة أيام، فكيف إذا ما قارنا الحال بما قبل عقد من الزمان؟!!

وإن الانحدار في دركات الهزيمة على هذا النحو من السرعة الذي نرى ونسمع شواهده في كل نشرة أخبار لمِمَّا يُمهد ويوطد لجيوش اليأس والقنوط أن تغزو نفوس المسلمين من خلال أسلحة الإعلام الموجه، المتمثل في الدراسات والتحليلات والتحقيقات التي ترسخ روح اليأس والهزيمة والإحباط .

ولذلك فإننا وفي هذا الظرف بالذات نقول بملء أفواهنا، وملء نفوسنا وقلوبنا: لا لليأس والإحباط.

ولا نقول هذا بمنطق المكابرة أو تجاهل الواقع أو القفز على الحقائق، وإنما نقوله بمنطق اليقين الراسخ بقوله تعالى: { فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (6)} [الشرح]

وبقول النبي صلى الله عليه وسلم: (..... وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا).[[141]](#footnote-142)

هذه حقيقة معروفة ملموسة، لها حضور لافت في ثقافة الأمة وأدبياتها، وقد عبَّر عنها الحكماء بعبارات شتى، فقال بعضهم:

ما بين طرفة عين وانتباهتها يغيِّر الله من حال إلى حال.

وألطف منه قول آخر:

ولرُب نازلة يضيق بها الفتى ذرعاً وعند الله منها المخرج

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فـُرجت وكنت أظنها لا تفرج

وألطف منهما قول ثالث[[142]](#footnote-143):

وكمْ للّهِ من لطفٍ خفيِّ يَدِقُّ خفاه عن فهمِ الذكيِّ

وكم يُسْرٍ أتى من بعدِ عُسْرٍ ففرج كُربة القلبِ الشجيِّ

وكم أمرٍ تـُساءُ به صباحاً وتأتيكَ المَسرةُ بالعشيِّ

إِذا ضاقَتْ بكَ الأحوالُ يوماً فثقْ بالواحدِ الفردِ العليِّ

تشفـَّعْ بالنبي فكل عبدٍ يُجار إذا تشفع بالنبي

وَلاَ تَجْزَعْ إذا ما نابَ خَطْبٌ فكم للهِ من لُطفٍ خفي

القنوط من رحمة الله ضلال ومأثم عظيم، لما جاء فيه من الوعيد، ولما يورثه من القعود وترك العمل، وترك الأخذ بالأسباب المشروعة.

فأما الوعيد، فلأن الله تعالى قال في حكاية قول إبراهيم عليه السلام: {قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلا الضَّالُّونَ } [الحجر: 56]

وقال سبحانه في حكاية قول يوسف عليه السلام: {إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [يوسف: 87]

وناهيك بهذا وعيداً

وأما أن القنوط يورث القعود، فلأن الإنسان إذا فقد الأمل في التصحيح والتغيير الإيجابي، رأى أن المحاولة عبث ومضيعة وقت، وأن من العقل أن لا يحاول، ولا يعمل على إصلاح أو تغيير.

وهذا هو أخطر ما في الأمر، وهذا الذي يحبه العدو ويتمناه، ويجهز له كتائب الدعاية والإعلام والفكر المضلل.

ثم إنّ ما يساند هذه الدعوة إلى نبذ اليأس واطـّراح الإحباط، كثير من الوقائع التي يرى فيها المسلم الفرَج العظيم بعد الشدة الخانقة، أو الرحمة الغامرة بعد اليأس المطبق، أو النصر المبين بعد الهزيمة المنكرة والعجز المهين.

وقد ذكر الله تعالى لنا في الذكر الحكيم نماذج من ذلك، منها ما هو على مستوى الأفراد ومنها ما هو على مستوى الجماعة والأمة، كما نقلت لنا كتب التاريخ وقائع من الفرج بعد الكرب ومن كشف الغمة على مستوى الأمة، مما لا يدع لليأس موطئ قدم في النفوس المؤمنة.

**أولاً: نماذج قرآنية:**

1. **إبراهيم عليه السلام.**

فمن النماذج التي حكاها القرآن في ترسيخ مبدأ منافاة الإيمان للقنوط، ما كان من خبر إبراهيم عليه السلام، وقد بشرته الملائكة بولد على كِبَر سنه وعقم امرأته وعجزها، بشرتهما الملائكة بغلام، وسمَّوْه لهما، وبغلام يولد لذلك الغلام، وسمَّوْه لهما.

قال تعالى في حكاية ذلك:

{وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (69) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (70) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (71) {قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (73)} [هود]

وأقل ما قيل في عُمُر إبراهيم عليه السلام وقت البشارة أنه كان ابن مائة سنة. وقيل: كان ابن مائة وعشرين.

وأقل ما قيل في عمر زوجه سارة أنها كانت بنت تسعين سنة. وقيل كانت بنت تسع وتسعين.

ولم تكن سارة وحدها التي تعجبت من تلك البشارة، كما سبق ذكره في الآيات المتقدمة من سورة هود، بل قد أظهر إبراهيم التعجب أيضاً، كما حكت آيات سورة الحجر:

{وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (51) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (52) قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (53) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (54) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (55) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلا الضَّالُّونَ (56)} [الحجر]

ولم يكن سيدنا إبراهيم عليه السلام قانطاً، حاشاه وهو أبو الحنفاء وأحد أولي العزم، ولكنه تعليم لكل مؤمن أن لا يكون قانطاً من الرحمة والفرج ولو كانت الأسباب ضعيفة أو بعيدة أو معدومة.

ولذلك فإن إبراهيم عليه السلام قد بيَّن بجلاء أنه لم يسأل عن قنوط، بل عن استغراب وتعجب من هذه القدرة الربانية المطلقة.

ولنستمع مرة أخرى: {قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (55) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلا الضَّالُّونَ (56)} [الحجر]

فالقنوط ضلالة تدل على مدى جهالة العبد بقدرة ربه ورحمته سبحانه.

والخليل عليه السلام منزه عن ذلك ولا بد.

1. **يعقوب عليه السلام.**

وواقعة أخرى من وقائع الفرَج بعد طول الكرب مما ذكره القرآن الكريم، وهي قصة يعقوب عليه السلام وقد فقد ابنه يوسف في واقعة كيدٍ كاده فيها إخوته الذين حملتهم الغيرة من يوسف على أن يلقوه في الجب لتخلص لهم مودة أبيهم - بزعمهم - بعد أن كان يستأثر بها يوسف وأخوه بنيامين.

ثم فقـَد يعقوبُ عليه السلام من بعد يوسف ابنـَه الثاني الأثير لديه (بنيامين) وذلك في واقعة كيد أخرى كادها الله ليوسف هذه المرة بعد أن صار عزيز مصر وصاحب الأمر والنهي فيها.

وبمقتضى ذلك الكيد احتجز يوسف أخاه بنيامين في مصر، مما حال دون عودته إلى أبيه في الشام.

وقد عظـُم حزن يعقوب على ولديه وطال شوقه وبكاؤه حتى فقد بصره. {وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ } [يوسف: 84]

ولكنه عليه السلام لم ييأس حتى بعد أن مرت عقود على فقد يوسف.

فكان عليه السلام مدرسة في التمسك بأهداب الأمل ومقاومة القنوط.

قال سبحانه في حكاية قول يعقوب يخاطب أبناءه، بعد أن أبلغوه بفقد ابنه الثاني بنيامين:

{يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } [يوسف: 87]

ومعنى قوله: {وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ} أي لا تقطعوا الأمل بالفرَج.

وذلك أن المؤمن في الشدة ما ينفك يرجو الفرَج من الله، في حين يسرع إلى الكافر القنوط.

وقد تحقق ليعقوب عليه السلام مأموله، فقد جمع الله شمله بيوسف وأخيه بعد أن مضى على غيبة يوسف اثنتان وعشرون سنة - على أقل ما جاء في أقوال المفسرين - وقيل: بعد فقد يوسف بست وثلاثين سنة. وقيل: بأربعين سنة. وقيل بثمانين. وقيل بأكثر من ذلك.[[143]](#footnote-144)

ففي هذا القصص الحق ما يرسخ مبدأ التحرر من القنوط واليأس دينياً، وذلك لأن القرآن جعل القنوط من صفات الضالين، كما سبق في قصة إبراهيم: {قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلا الضَّالُّونَ} [الحجر: 56]

وجعل اليأس من صفات الكافرين، كما في قصة يوسف: {وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [يوسف: 87]

**ثانياً: وقائع في تاريخ الأمة**

فإذا التفتنا إلى تاريخ ملتنا وسيرة أمتنا مع أعدائها، وتتبعنا خطها البياني صعوداً وهبوطاً، فإننا سنرجع بقناعة راسخة أن لا مكان لليأس لا من حيث نصوص الدين ولا من حيث وقائع تاريخ المسلمين.

وإليكم بعض هذه الوقائع:

1. **يوم الأحزاب.**

وذلك يوم غزوة الخندق، إذ بلغ البلاء ذروته وضاقت الصدور وزاغت الأبصار وغزا اليأس أصحاب القلوب المريضة حتى قال قائلهم: ( ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً).

وقال قائلهم: (يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا).

أما أهل اليقين فما نال ذلك منهم، ولا فتَّ في عضدهم، بل زادهم يقيناً بقرب النصر، لأن الكرب إذا بلغ ذروته فلم يبق إلا أن ينحسر ويأتي الفرَج.

هذه سنة الله مع عباده المؤمنين المرضيين، التي عرَّفهم إياها في قوله سبحانه: { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ } [البقرة: 214]

ولقد ذكر الصحابة رضي الله عنهم هذه السنة الربانية يوم الأحزاب فاستبشروا بالنصر والفرَج وهم في قلب الكرب، تصديقاً منهم بهذا الوعد.

فصدقهم الله وعده، وأنزل نصره، وأرسل على الأحزاب جنوده من خفِيٍّ وجلِيّ، { وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا } [الأحزاب: 25]

وانظر وقارنْ بين خـَوَر المنافقين ويأسهم، وبين ثبات المؤمنين وعظيم رجائهم.

قال سبحانه عن المنافقين: { وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلا غُرُورًا (12) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلا فِرَارًا (13)} [الأحزاب]

وقال عن المؤمنين: { وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} [الأحزاب: 22]

قال القرطبي عند تفسيرها: "قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ" يريد قوله تعالى في سورة البقرة: " أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ" ..." الآية. فلما رأوا الأحزاب يوم الخندق قالوا:" هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ"

1. **يوم حُنين**

يوم حنين انهزم المسلمون أول الأمر حتى قال قائلون: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر.

ولكن الله تعالى تداركهم بلطفه ورحمته، وأنزل سكينته ونصره، وامتن عليهم بذلك فقال:

{لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (25) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (26)} [التوبة]

الانحسار والانكسار والهزيمة، كل ذلك قد يعرض للمسلمين، ولكن لا على أنه أصل، وإنما على أنه أمر عارض يحمل درساً له مغزىً إيماني.

فإذا فهم المسلمون الدرس وأحسنوا الإفادة فلا يصح أبداً أن ييأسوا من الفرَج أو يتشككوا في النصر.

1. **الصليبيون وبيت المقدس.**

وهذا التاريخ يشهد بأن أمر المسلمين قد انحسر من قبلُ على أشدَّ مما هو عليه اليوم حتى دخل الصليبيون بيت المقدس تخوض خيولهم في دماء المسلمين، ومكث المسجد الأقصى تحت سلطان الصليبيين لا تقام فيه جمعة ولا جماعة على مدى إحدى وتسعين سنة، حتى جاء جيل صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، الذين فهموا الدرس وتلافوا الأسباب وغيروا ما بأنفسهم، وصدَقوا العودة إلى دينهم، وشحَنوا باليقين قلوبهم، فجمعوا كلمتهم ووحدوا صفوفهم، واستعانوا بربهم حتى استردوا بيت المقدس وطردوا منه الصليبيين بعد تلك العقود المتطاولة من السنين، بقيادة صلاح الدين رحمه الله.

فهل يصح أن ييأس المسلمون اليوم من استرداد بيت المقدس من أيدي اليهود، ولم يمض على اغتصابهم له نصف تلك المدة التي قضاها أسيراً بأيدي الصليبيين؟!!

1. **جمهوريات الاتحاد السوفييتي الإسلامية.**

وها هي ذي جمهوريات الاتحاد السوفييتي المسلمة قد تنفست الصعداء من كابوس استعمار الاتحاد السوفييتي بعد نيف وسبعين سنة من القهر الديني والاستعمار البغيض.

ولكن الله تعالى جاء بالفرج بعد تلك العقود الثقيلة.

فهل يُلقي المسلمون أيديَهم بعد ذلك في أغلال اليأس من طرد المغتصبين والمستعمرين؟!

1. **التتار والشرق الإسلامي.**

ولقد وجدتُ عبرة عظيمة في هذا الباب في أخبار هجوم التتار على المسلمين منتصف القرن السابع الهجري، أحببت أن أختم بها هذا المبحث.

فقد ذكر الحافظ ابن كثير في تاريخه - في أحداث سنة خمسين وستمائة - أن التتار وصلوا إلى ما يسمى: ( الجزيرة الفراتية)، حيث بلاد سنجار وسروج ورأس العين وحران، فقتلوا في تلك السنة من المسلمين نحواً من عشرة آلاف، وسبَوا من النساء والولدان نظير ذلك، هذا فضلاً عن مصادرة الأرزاق وانتهاب الأموال.

ثم لمّا دخلوا بغداد في سنة ست وخمسين وستمائة، مكثوا أربعين يوماً يقتلون ويفسدون، حتى أسفرت جريمتهم المروعة عن عدد من القتلى أقل تقدير له: ثمانمائة ألف قتيل. وقيل: بل كانوا مليوناً وثمانمائة ألف قتيل. وقيل أكثر من ذلك.

ثم رجع هولاكو قائد التتار بجيشه إلى بلاده.

وفي سنة سبع وخمسين وستمائة أرسل هولاكو إلى صاحب دمشق الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن محمد - وهو من أحفاد صلاح الدين الأيوبي رحمه الله - أرسل إليه يستدعيه إلى بلاده، فأجاب بإرسال ولده نائباً عنه، وأرسل معه هدايا وتحفاً كثيرة لعلها تـُطيِّب نفس هولاكو وتثنيه عن غزو الشام بعد غزوه العراق في السنة الماضية.

إلا أن هولاكو غضب من عدم إجابة ملك دمشق بنفسه، وقال: أنا أسيرُ إليه بنفسي.

وخاف أهل دمشق عندما علموا أنّ هولاكو قد عبر الفرات بجيشه إلى بلاد الشام، حتى إنّ كثيراً منهم قد هاجروا يريدون أرض مصر، والشتاء شديد، فمات منهم من مات ونـُهب من نـُهب

وفي صفر من سنة ثمان وخمسين وستمائة وصل هولاكو إلى حلب فحاصرها سبعة أيام، وكان ملك حلب ( توران شاه) حازماً عاقلاً، إلا أن جيشه لم يطاوعه على القتال، ففتحوا البلد للتار بالأمان، فلما استحكم التتار غدروا وقتلوا وخربوا وأفسدوا، وجرى على حلب قريبٌ مما جرى على بغداد من قبل.

وعلم صاحب حماة بما حلّ بحلب فأرسل مفاتيح حماة إلى هولاكو طواعية، فاستناب هولاكو نائباً على حماة خرّب أسوارها كما خرب أسوار حلب من قبل. ثم إن الملك الأشرف صاحب حمص انضم إلى عسكر هولاكو الذي سار إلى دمشق، فلما وصلها أخذها سريعاً بلا ممانعة ولا مدافعة - وكان قد هرب ملكها الملك الناصر الذي سبق ذكره -

فتلقاه كبراؤها جيش هولاكو بالرحب والسعة.

فانظروا كيف تتشابه وقائع التاريخ، عندما نرى من أبناء جلدتنا من يوطد لدخول أعداء الأمة والملة تحت مختلف الذرائع والدعاوى.

حقاً ما أشبه الليلة بالبارحة!!

وكان هولاكو قد أرسل مع الجيش كتاب أمان لأهل دمشق، فقرئ على الناس في الميدان الأخضر، فأمن الناس على حذر مخافة أن يصيبهم من الغدر مثلُ ما أصاب أهل حلب.

وامتنعت قلعة دمشق فلم تستسلم حتى هدم التتار أسوارها بالمنجنيق، فدخلوها وقتلوا من فيها.

فلما استتب الأمر للتتار جاء النصارى يقدمون الهدايا لنائب هولاكو الذي كان معظـِّماً لدين النصارى، مما جرأ نصارى دمشق على أن يخرجوا بصليبهم ينادون: ظهر الدين الصحيح دين المسيح. ويذمون دين الإسلام وأهله، ومعهم أواني الخمر لا يمرون بمسجد إلا رشوه بالخمر، ولا يمرون بمسلم إلا رشوا وجهه بالخمر وأمروه أن يقوم مكرهًا تعظيماً لصليبهم.

تصوروا هذه الحال المزرية من الكرب العظيم الذي حل بأمة الإسلام آنذاك.

ولم يكتف التتار بذلك. بل توجهوا جنوباً، لا يدَعون أحداً في بادية ولا حاضرة إلا آذوه بقتل أو نهب أو أسر، حتى وصلوا إلى غزة في طريقهم إلى مصر.

ولما علم الملك (المظفر قـُطـُز) - وهو من ملوك المماليك الأتراك بمصر- أن التتار يريدون مصر، خرج بالناس وقد اجتمعوا عليه، يلقى التتار في أرض الشام قبل أن يطؤوا بلاده، والتقى الجيشان في (عين جالوت) وذلك في يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان من سنة ثمان وخمسين وستمائة، فاقتتلوا قتالاً شرساً صدق فيه المؤمنون الصبر وأحسنوا البلاء فصدقهم الله سبحانه وعده بالنصر، فهزموا التتار هزيمة هائلة منكرة، وقـُتل أشهرة قادة هولاكو العسكريين المدعو: (كتبغانوين)، وفرَّ التتار في كل جهة، والمسلمون يتبعونهم ويقتلونهم في كل موضع، ويفكون الأسارى من أيديهم، وخرجت فلولهم من دمشق خزايا مقهورين حين دخلها الملك المظفر قـُطـُز، فأرسل الكتائب في إثرهم فأخرجوهم من حمص ومن حماة ومن المعرة، ثم طردوهم عن حلب حتى خرج التتار من كل بلاد الشام وانصرفوا إلى بلادهم صاغرين موتورين.

كل ذلك في غضون نحو شهر من أواخر رمضان حيث موقعة عين جالوت، إلى أواخر شوال من تلك السنة.[[144]](#footnote-145)

**أفليس في هذه الوقائع ما ينعش الأمل في قلب كل مسلم بإمكان التغيير وسرعته إذا أخذ المسلمون بأسباب النصر وصدقوا العزم.**

**فلئن كان في أعداء المسلمين اليوم من يضاهي هولاكو في الجبروت، فليس ببعيد عنه يومٌ كـَيَوم عين جالوت.**

**وما ذلك على الله بعزيز.**

**الخاتمة**

**وختامًا نقول:** أجل لا بُدَّ للمسلم من موقف.

ولقد كانت الصفحات السابقة التي ضمت هذا البحث عبارة عن جملة من الرؤى والمواقف والنصائح التي أنصح بها نفسي، كما أنصح بها كل مسلم ومسلمة.

منها القولي ومنها العملي ومنها القلبي، أدعو إلى أن نتحراها جميعًا في أنفسنا، في أقوالنا وفعالنا وفي تصوراتنا ومقاصدنا، بحيث تكون تلك المواقف الفردية المتكاملة طاقاتٍ تضاف إلى عزيمة الأمة وتـَشدُّ من أزرها، ولبناتٍ يُرفع بها سياج الأمة وتـُسد بها ثغرات حصنها التي ما تفتأ تنبثق وتنفتق، ولا بد من مواصلة الترميم والتضميد والتشييد قبل أن يصبح الفتق خرقاً، ثم يتسع الخرق على الراقع.

وعندما يرعى كل واحد منا موقعه في الأمة، ويتخذ الموقف الأمثل، ويقيم من نفسه حارسًا على حصنها من جهته، فإنَّ الثغرات ما تلبث أن تلتئم وتندمل كأنها لم تكن.

فأما عندما يَحقر أحدنا موقعه، ويُهوِّن من شأن نفسه، ولا يكترث بالخرق يراه وهو قادر على أن يرقعه، ويستثقل أن يكلف نفسه عملاً إصلاحيًا أو قولاً مصلحًا أو حتى نية صالحة، فإنّ هذا الفرد يُعتبر في ذاته ثغرة في الأمة وعبئاً عليها.

فلا يَحقِرنَّ مسلم موقعه. وما أصدق المقولة الشائعة: كل مسلم على ثغرة من ثغور الإسلام، فليحذر أن يُؤتى الإسلام من قـِبَله.

إن حجم الاستهداف وغزارة السهام التي تـُرمَى بها الأمة، ومبلغ الكيد الذي يُحاك ضدها في السر والعلن، وهول القواصم التي تُدبَّر لها في مختلف العواصم، كلُّ ذلك يتطلب تجنيد طاقات كلِّ رجل وامرأة، وكل شابٍّ وكهل وشيخ في الأمة لوقايتها من تلك المكائد، أو لعلاجِ وترميم آثار ما أصاب منها فدمَّرَ وفتك.

وإنني لأنظر كما ينظر أبناءُ جيلي، في هذه العقود الأربعة أو الخمسة المنصرمة منذ فتحنا عيوننا على هذا الكون، فنرى قائمة طويلة من الظلم والقهر العسكري وغير العسكري، الواقع على أمتنا وملتنا في هذه العقود الأخيرة فحسب.

قائمة لا تزال تنامَى وتكبر مع أعمارنا، وكل تالية منها شرٌّ من خالية، وكل لاحقة منها ترقق سابقة.

حتى لقد أصبحنا ننظر إلى المستقبل وكأنه بحر من الظلام الدامس، لا ندري عن أي شيء يُسفر حين يُسفر.

وإن أدنى التصورات والتوقعات عن المستقبل شديد خطير، فكيف بأقصاها؟!

ثم لا بد من التذكير هُنا بأنَّ هذا الموقف الإيجابي الذي ندعو إليه في هذه الملمات المدلهمات، والرزايا المثقلة بالمنايا والدنايا التي لا تخفى شواهدها على ذي عينين؛ هذا الموقف الإيجابي المطلوب ليس مقصودًا لتفادي خسائر مالية، أو حفظ أرواح بشرية، أو نحو ذلك من صيانة مصالح دنيوية فحسب.

بل إنَّ من الخطأ أن ننطلق في مواقفنا من باعث الحرص على مصلحة دنيوية بحتة كما هو شأن الأمم الأخرى الذين {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} [الروم: 7]

إنَّ الواجب - ومن واقع أننا مسلمون - أن يكون منطلقـُنا في اتخاذ المواقف هو ما تقتضيه مصالح الدين والدنيا جميعًا.

فإنَّ في هذا المنطلق صلاحَ الدنيا وشؤونها التي أفسدتها الفتن الداخلية، والمكائدُ والاعتداءات الخارجية.

وهي غاية تشاركنا فيها كل الأمم والملل.

كما أنَّ فيه صيانة الدين وصلاح الآخرة.

وهي غاية ننفرد بها ونتمايز عن كل الأمم والملل كما يتمايز الحق عن كل صنوف الباطل، وهي الغاية الأهم الذي تتضاءل أمامها الغاية الأولى وتتلاشى كما تتلاشى الدنيا في جنب الآخرة.{فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ} [التوبة:38]

ومعلوم أن من خسر الدنيا فلا يُعتد بخسرانه في منطق الإيمان إذا هو أحرز الدين. وماذا فات مَن فاتته الدنيا إذا هو ربح الآخرة؟!

إنَّ منطق الإيمان يقول: (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا من شربة ماء).[[145]](#footnote-146)

دخل سيدنا عمر رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم فرآه مضطجعًا عَلَى حصير، ليس بَيْنَهُ وَبَيْن الحصير شَيْءٌ من فراش ولا وطاء. قال عمر: (فَرَأَيْتُ أَثَرَ الْحَصِيرِ فِي جَنْبِهِ فَبَكَيْتُ. فَقَالَ: مَا يُبْكِيكَ؟! فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ.! فَقَالَ: أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمْ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ؟).[[146]](#footnote-147)

فليكن باعث المسلم على لزوم الموقف الإيجابي باعثاً دينياً أخروياً بالمقام الأول، وليحتسب في ذلك اجتناب الوزر واغتنام الأجر، فإنَّ الخـُسْر كل الخـُسر في حرمان الأجر واحتمال الوزر.

وانظروا كيف وجه النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا الباعث إذ يقول:

(بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتناً كقِطـَعِ الليلِ الْمُظلِم، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِناً وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِناً وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بعَرَض مِنْ الدنيا).[[147]](#footnote-148)

ثم انظروا إلى هذه المقارنة القرآنية بين من يقومون بما يجب القيام به من الصلاح والإصلاح، وبين من هم على النقيض من ذلك، ولاحظوا كيف أن معيار المفاضلة بين الفريقين أخروي صِرْف، قال سبحانه في الرعد:

{وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (21) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (22) **جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (23) سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ** (24) وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ **لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ** (25)}.

بقي أن أقول: إن أصل هذا البحث كان سلسلة من خطب الجمعة بلغت عشرين خطبة بعنوان: ( موقف المسلم من مصائب الأمة)، ألقيتها في ثنايا نحو خمسة أشهر، في الفترة الواقعة بين: /14/11/1423هـ ،

إلى: /6/4/1424هـ الموافق: /7/1/2003م ، إلى /6/6/2003م

تلك الفترة التي شهدت كارثة سقوط بغداد واستباحة العراق من قبل القوات الأمريكية وحلفائها الغربيين.

وكانت العراق الدولة الإسلامية الثانية التي تسقط في براثن ذلك الغزو الوحشي الهمجي، بعد سقوط أفغانستان قبل ذلك بنحو سنة ونصف.

وقد كانت كل منهما رزية عظيمة ساءت كل مسلم ومسلمة، لما اقتضاه ذلك على الأمة من تجرع المنية والدنية في آنٍ واحد.

فقد كان القتلى بمئات الآلاف، بالإضافة إلى الملايين من الجرحى والزمنى والمعتقلين والمشردين.

أعداء حقدة متجبرون، جاؤوا من وراء البحار فجثموا على أرض المسلمين، يفتِكون في الدماء، وينتهكون الأعراض، ويتلفون الأموال، وينتهبون الثروات بلا حسيب ولا رقيب، وناهيك بهذا دنِـيَّة وهواناً.

ومن ثنايا تلك المآسي، ومن صدى تلك المشاعر المؤلمة التي واكبنا فيها تلك الأحداث الجسام التي ما تزال تداعياتها وعقابيلها تتجدد وتتمدد، جاءت فكرة هذا البحث الذي يحاول أن يقدم الرؤية الشرعية في تعاطي المسلم، أياً كان موقعه، مع ذلك الواقع الأليم.

ولأن الليلة أشبه بالبارحة، فإن الحاجة ما تزال قائمة إلى التعرف على الموقف الشرعي الذي يجعل من الفرد المسلم عنصر بناء لا معول هدم، وطاقة تضاف إلى عزيمة الأمة، لا قوة تنحاز إلى أعدائها.

وهذا ما دعاني إلى إخراج هذا البحث من كراريس خطب الجمعة إلى هذا الكتيب.

وقد اقتضى ذلك شيئاً من التنقيح والتعديل والتبويب وإعادة الصياغة التي يتطلبها إعداد البحث للنشر.

واللهَ أسأل أن يرزقني سَداد الأقوال وسَداد الأفعال وخـُلوص النية، إنه خير مسؤول.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

**الـمـحـتـويات**

|  |  |
| --- | --- |
| **الموضوع** | **الصفحة** |
| المقدمة | 2 |
| التمهيد. نبوءة ونصيحة | 7 |
| **الفصل الأول: التنظير** | 10 |
| المبحث الأول: تحصين الدين من شظايا الفتن. | 10 |
| المبحث الثاني: استشعار هَمّ الأمة. | 13 |
| المبحث الثالث: التفكر في أسباب البلاء. | 16 |
| الحقيقة الأولى: البلايا بالخطايا. | 17 |
| الحقيقة الثانية: الابتلاء بالسراء بعد الضراء. | 20 |
| الحقيقة الثالثة: حفظ النعمة بحفظ الدين. | 21 |
| الحقيقة الرابعة: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام. | 24 |
| **الفصل الثاني: التغيير.** | 28 |
| **المبحث الأول**: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. | 28 |
| الوقفة الأولى: ابدأ بنفسك. | 28 |
| الوقفة الثانية: تنشيط لا تثبيط. | 31 |
| الوقفة الثالثة: مكائد على الطريق. | 32 |
| الوقفة الرابعة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب. | 36 |
| الوقفة الخامسة: غيظ الشيطان والمنافقين. | 37 |
| الوقفة السادسة: خطورة التفريط. | 38 |
| الوقفة السابعة: ضوابط إنكار المنكر. | 40 |
| **المبحث الثاني**: الحذر من المكر الإعلامي. | 42 |
| المحور الأول: الحرب الإعلامية في العصر النبوي. | 43 |
| المحور الثاني: الحرب الإعلامية المعاصرة. | 45 |
| المحور الثالث: منهج القرآن في التعامل مع حرب الإعلام | 49 |
| **المبحث الثالث**: الولاء والبراء. | 51 |
| بواعث موالاة أعداء الملة. الباعث الأول: دنيوي مصلحي | 54 |
| نماذج وأمثلة: المثال الأول: الاغتراب. | 55 |
| المثال الثاني: المدارس الأجنبية. | 57 |
| **الموضوع** | **الصفحة** |
| المثال الثالث: عالَم المال. | 59 |
| المثال الرابع: عالَم الأعمال. | 60 |
| المثال الخامس:التجارة. | 63 |
| المثال السادس: مثال من السيرة. | 65 |
| علاج القرآن لهذا الباعث | 69 |
| الباعث الثاني: قلبيٌ عقدي. | 72 |
| أولاً: حكمه | 72 |
| ثانياً: الاستدلال على الحكم | 74 |
| ثالثاً: وقائع ومقارنات | 77 |
| الولاء والبراء عند المؤمنين. دروس من الفتنة الكبرى | 78 |
| الولاء والبراء عند المنافقين. موالاتهم لمشركي العرب | 81 |
| موالاة المنافقين لليهود | 82 |
| موالاة المنافقين للنصارى | 87 |
| فوائد: الأولى: | 89 |
| الثانية: | 90 |
| الثالثة: | 91 |
| **المبحث الرابع**: الصبر | 92 |
| شواهد اقتران البلاء بالصبر | 93 |
| **المبحث الخامس**: الدعاء | 98 |
| وقفات مع الكلمات الربانية | 98 |
| دعاء المقاتلين ودعاء القاعدين | 103 |
| الدعاء خصوصية للأمة | 106 |
| الجمع بين العُدتين | 107 |
| التأصيل الإيماني للدعاء | 109 |
| غرائب الوقائع في إجابة الدعاء | 111 |
| إجابة دعوة نوح عليه السلام | 111 |
| دعوات إبراهيم عليه السلام | 112 |
| دعوة أيوب عليه السلام | 113 |
| دعوة زكريا عليه السلام | 113 |
| **الموضوع** | **الصفحة** |
| دعوة يونس عليه السلام | 114 |
| إجابة دعوات سيد المرسلين. صلى الله عليه وسلم | 115 |
| دعاؤه صلى الله عليه وسلم بالنصر في الحرب. | 116 |
| دعاؤه صلى الله عليه وسلم على المشركين بمكة. | 118 |
| دعاؤه صلى الله عليه وسلم لأعدائه. | 121 |
| دعاؤه صلى الله عليه وسلم لأصحابه رضي الله عنهم. | 123 |
| معجزات دعائه صلى الله عليه وسلم في غزوة العسرة. | 124 |
| 1. الإطعام من جوع | 124 |
| 1. السقيا بعد عطش | 125 |
| 1. النشاط بعد إعياء. | 126 |
| استسقاؤه في الجمعة. | 128 |
| دعاؤه لعموم الأمة. | 128 |
| دعاؤه لآحاد من أصحابه. | 130 |
| 1- دَين والد جابر | 130 |
| 1. جمل جابر | 130 |
| 1. النابغة الجعدي | 131 |
| 1. أم قيس بنت مِحْصَن | 131 |
| 1. بُنـَيَّة رافع بن سنان | 132 |
| إجابة الله سبحانه دعوات المؤمنين | 133 |
| دعاء واستسقاء عمر رضي الله عنه | 134 |
| دعوة البراء بن مالك رضي الله عنه | 135 |
| دعوات العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه | 136 |
| دعاء سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. | 136 |
| دعاء خبب بن عدي رضي الله عنه. | 139 |
| دعوة عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. | 140 |
| **المبحث السادس**: أمل، لا قنوط. | 142 |
| أولاً: نماذج قرآنية: 1- إبراهيم عليه السلام. | 144 |
| 2- يعقوب عليه السلام. | 145 |
| ثانياً: وقائع في تاريخ الأمة | 147 |
| **الموضوع** | **الصفحة** |
| 1. يوم الأحزاب. | 147 |
| 1. يوم حُنين | 148 |
| 1. الصليبيون وبيت المقدس. | 148 |
| 1. جمهوريات الاتحاد السوفييتي الإسلامية. | 149 |
| 1. التتار والشرق الإسلامي. | 149 |
| **الخاتمة** | 152 |

1. - البخاري، كتاب المظالم، باب: لا يظلم المسلمُ المسلمَ ولا يسلمه. ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم. [↑](#footnote-ref-2)
2. - البخاري، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر. ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان قول النبي صلى الله عليه وسلم سباب المسلم فسوق.

   [↑](#footnote-ref-3)
3. - انظر كتاب: المسلمون في أوربا وأمريكا، لعلي المنتصر الكتاني، الجزء الأول، ص182 [↑](#footnote-ref-4)
4. - هو من المناضلة، وهي المراماة بالنشاب. [↑](#footnote-ref-5)
5. - هو بفتح الجيم والشين، وهي الدواب التي ترعى وتبيت مكانها. [↑](#footnote-ref-6)
6. - مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخليفة الأول. [↑](#footnote-ref-7)
7. - جمع (حائط)، وهو البستان. [↑](#footnote-ref-8)
8. - بوزن (فاعل)، وهو السهم الذي لا يُدرى مَن رمى به. [↑](#footnote-ref-9)
9. - الشراك، بكسر الشين، وتخفيف الراء: سَيْر النعل على ظهر القدم. [↑](#footnote-ref-10)
10. - البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر. ومسلم، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم الغلول. [↑](#footnote-ref-11)
11. - مسلم، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم الغلول. [↑](#footnote-ref-12)
12. - مسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال عند تظاهر الفتن. [↑](#footnote-ref-13)
13. - البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحي لنفسه، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك. [↑](#footnote-ref-14)
14. - البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم. [↑](#footnote-ref-15)
15. - البخاري، كتاب المظالم، باب نصرة المظلوم، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم.

    [↑](#footnote-ref-16)
16. - المستطرف في كل فن مستظرف، للأبشيهي. جـ1 ص298. وانظر صبح الأعشى، للقلقشندي، جـ3 ص287 [↑](#footnote-ref-17)
17. - يعني من القاهرة لنجدة أهل دمياط. [↑](#footnote-ref-18)
18. - قال في معجم البلدان: حارم، بكسر الراء: حصن حصين، وكورة جليلة تجاه أنطاكية، وهي الآن من أعمال حلب. اهـ. قلت: وكان نور الدين قد انتزعها من أيدي الفرنج سنة إحدى وخمسين وخمسمائة. [↑](#footnote-ref-19)
19. - البداية والنهاية لابن كثير، أحداث سنة: 565 هـ [↑](#footnote-ref-20)
20. - فتح الباري، لابن حجر العسقلاني، جـ2 ص497 [↑](#footnote-ref-21)
21. - البخاري، كتاب الكسوف، باب الصدقة في الكسوف. ومسلم، كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف. [↑](#footnote-ref-22)
22. - أي عند قسمة السبي بين المقاتلين. [↑](#footnote-ref-23)
23. - حلية الأولياء، جـ1 ، ص217. ورواه أيضاً الإمام أحمد في الزهد برقم: 771، وسعيد بن منصور في سننه يرقم: 2480. [↑](#footnote-ref-24)
24. - هي أن يبيع سلعة إلى أجل بثمن معلوم، ثم يشتريها من المشتري نقدًا بثمن أقل. [↑](#footnote-ref-25)
25. - كناية عن الاشتغال بالزرع في زمن يتعين فيه الجهاد. [↑](#footnote-ref-26)
26. - سنن أبي داود، كتاب الإجارة، باب في النهي عن العِـينة. [↑](#footnote-ref-27)
27. - هكذا هي في سنن ابن ماجه، بالخاء المعجمة، بعدها الياء المثناة، والمعنى غامض، وجاءت في جامع الأحاديث للسيوطي وزيادة الجامع له- منسوباً إلى سنن ابن ماجه- وفي تاريخ دمشق لابن عساكر بلفظ: ويتحروا فيما أنزل الله. بالحاء المهملة بعدها الراء، ومعناها واضح. وأوضح منه ما أورده الحافظ ابن كثير في كتابه (النهاية في الفتن والملاحم) نقلاً عن سنن ابن ماجه بلفظ: وسَخِروا بما أنزلَ اللَّهُ. بالسين المهملة والخاء المعجمة. من السخرية. فالله أعلم أي ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم.

    2- سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب العقوبات. [↑](#footnote-ref-28)
28. [↑](#footnote-ref-29)
29. - البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين. ومسلم، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى بن مريم. [↑](#footnote-ref-30)
30. - شرح مسلم للنووي، جـ 13، ص 67 . وانظر فتح الباري لابن حجر،جـ13، ص295 [↑](#footnote-ref-31)
31. - المخاضة: مجرى ماء ضحل يجتازه الناس مشاة أو ركباناً، ولا يحتاج عبوره إلى سباحة. [↑](#footnote-ref-32)
32. - في الأصل: ( لم يقل). وهو لا يستقيم مع السياق. [↑](#footnote-ref-33)
33. - المستدرك للحاكم النيسابوري، كتاب الإيمان، رقم الحديث: 207 [↑](#footnote-ref-34)
34. - البقرة: 44 [↑](#footnote-ref-35)
35. - الصف: 2-3 [↑](#footnote-ref-36)
36. - هود: 88 [↑](#footnote-ref-37)
37. - تفسير ابن كثير، سورة البقرة، الآية: 44 [↑](#footnote-ref-38)
38. - الأقتاب: الأمعاء. [↑](#footnote-ref-39)
39. - البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار، وأنها مخلوقة. ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله. [↑](#footnote-ref-40)
40. - هو أبو الأسود الدؤلي. وقيل غيره. [↑](#footnote-ref-41)
41. - فيض القدير للمُناوي، جـ5 ص522 [↑](#footnote-ref-42)
42. - تفسير الطبري، سورة النساء، الآية: 31 [↑](#footnote-ref-43)
43. - شرح مسلم للنووي، جـ2 ص84 [↑](#footnote-ref-44)
44. - الأنفال: 25 [↑](#footnote-ref-45)
45. - البخاري، كتاب الصلح، باب الصلح في الدية. ومسلم، كتاب القسامة، باب إثبات القصاص في الأسنان وما في معناها .

    [↑](#footnote-ref-46)
46. - البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة. ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم. [↑](#footnote-ref-47)
47. - نهاية الأرب في فنون الأدب ـ للنويري - (21 / 35)

    2- الكامل في التاريخ – لابن الأثير (3 / 78) وانظر تاريخ الطبري - (4 / 587)، وسير أعلام النبلاء للذهبي - (13 / 449)

    3- سير أعلام النبلاء للذهبي - (30 / 61)

    [↑](#footnote-ref-48)
48. [↑](#footnote-ref-49)
49. [↑](#footnote-ref-50)
50. - الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن القيم، (ص، 38)

    [↑](#footnote-ref-51)
51. - استهموا: اقترعوا. [↑](#footnote-ref-52)
52. - البخاري، كتاب الشركة، باب: هل يقرع في القسمة ؟، والاستهام فيه. [↑](#footnote-ref-53)
53. - مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان . [↑](#footnote-ref-54)
54. - مسلم، كتاب البر والصلة، باب فضل الرفق. [↑](#footnote-ref-55)
55. - البداية والنهاية، لابن كثير، وفيات سنة: 193هـ [↑](#footnote-ref-56)
56. - هو أبو العباس، محمد بن صبيح، العابد الزاهد المحدّث، اشتهر بالوعظ، توفي: 183هـ [↑](#footnote-ref-57)
57. - الكظم، محركة: الحلق أو الفم أو مخرج النفس.اهـ عن القاموس المحيط. [↑](#footnote-ref-58)
58. - البقرة: 166 [↑](#footnote-ref-59)
59. - البداية والنهاية، لابن كثير، وفيات سنة: 193هـ [↑](#footnote-ref-60)
60. - الطبقات الكبرى لابن سعد. جـ 4 ، ص 279 ] [↑](#footnote-ref-61)
61. - انظر (زاد المعاد) لابن القيم، جـ3 ص216 [↑](#footnote-ref-62)
62. - مسلم، مقدمة الصحيح، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع. [↑](#footnote-ref-63)
63. - سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في قول الرجل: زعموا. [↑](#footnote-ref-64)
64. - سورة الزخرف، 81 [↑](#footnote-ref-65)
65. - تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، سورة الحجر، 85 [↑](#footnote-ref-66)
66. - تفسير القرطبي، سورة فصلت، 34 [↑](#footnote-ref-67)
67. - تفسير القرطبي، جـ 4 ص179 [↑](#footnote-ref-68)
68. - إعلام الموقعين عن رب العالمين ، جـ 3 ص370 [↑](#footnote-ref-69)
69. - الأشباه والنظائر، جـ 2 ص466

    2- مسند الإمام أحمد، مسند الأنصار، رقم الحديث: 21996 ورواه بنحوه البيهقي في السنن الكبرى. [↑](#footnote-ref-70)
70. [↑](#footnote-ref-71)
71. - البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أهل بدر. [↑](#footnote-ref-72)
72. - تفسير القرطبي، أول سورة الممتحنة. [↑](#footnote-ref-73)
73. - تفسير القرطبي، أول سورة الممتحنة. [↑](#footnote-ref-74)
74. - تفسير القرطبي، جـ18 ص50 ، وروح المعاني للألوسي، جـ28 ص66. [↑](#footnote-ref-75)
75. - البداية والنهاية، جـ8 ص513 [↑](#footnote-ref-76)
76. - بتنوين "أبيٍ" ورفع "ابن" وإثبات ألفها، لأنها صفة لـ: :"عبد الله" وليس صفة لـ "سلول"، لأن "سلول" اسم أمه وليس اسم جده كما قد يتبادر. فكلمة "ابن" ليست واقعة بين اسمين علمين ثانيهما أب للأول، ولذلك تثبت ألفها. انظر شرح النووي على صحيح مسلم جـ 2 ص102 . [↑](#footnote-ref-77)
77. - تفسير ابن كثير جـ2 ص87 [↑](#footnote-ref-78)
78. - تفسير القرطبي، جـ2 ص22 [↑](#footnote-ref-79)
79. - صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم، وأصحابه، من المشركين بمكة. [↑](#footnote-ref-80)
80. - نقل ابن كثير في تفسيره عن الحسن {رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ}: علماء صُبُرٌ أبرار وأتقياء. [↑](#footnote-ref-81)
81. - رواه أحمد في مسنده جـ5 ص19 بسند حسن كما قال الصنعاني في سبل السلام. كما أخرجه البيهقي في شعب الإيمان والضياء المقدسي في المختارة. [↑](#footnote-ref-82)
82. - رواه النسائي في السنن الكبرى، والترمذي وحسّنه، كلاهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما [↑](#footnote-ref-83)
83. - عن كتاب ( نهاية الأرب في فنون الأدب ) للنويري [↑](#footnote-ref-84)
84. - انظر السيرة النبوية لابن كثير 2/410 ، وغيرها من كتب السيرة، في أحداث غزوة بدر. [↑](#footnote-ref-85)
85. - ضبطها النووي في شرح صحيح مسلم: (مُرْمَل) بإسكان الراء وفتح الميم. وضبطها ابن حجر في الفتح: (مُرَمَّل) بفتح الراء وتشديد الميم المفتوحة. ومعناه فيهما: السرير الذي نُسج بالسَّعَف وشُدَّ بالحبال ونحوها. [↑](#footnote-ref-86)
86. - القصة في الصحيحين، انظر صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة أوطاس، وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب مِنْ فَضَائِلِ أَبِى مُوسَى وَأَبِى عَامِرٍ الأَشْعَرِيَّيْنِ رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا. [↑](#footnote-ref-87)
87. - تاريخ دمشق، لابن عساكر، ( 56/142) [↑](#footnote-ref-88)
88. - يونس ( 22 ، 23) [↑](#footnote-ref-89)
89. - لقمان ( 32) [↑](#footnote-ref-90)
90. - الإسراء ( 67) [↑](#footnote-ref-91)
91. - أي: اهزمه غداة اللقاء. [↑](#footnote-ref-92)
92. - المستدرك للحاكم، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. [↑](#footnote-ref-93)
93. - مسند أحمد، مسند المكثرين. [↑](#footnote-ref-94)
94. - سنن الترمذي، كتاب الدعوات. [↑](#footnote-ref-95)
95. - صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب العزم بالدعاء. [↑](#footnote-ref-96)
96. - رواه الحاكم في المستدرك وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وأخرجه أحمد في مسنده، والطبراني في الكبير، وابن حبان في صحيحه. [↑](#footnote-ref-97)
97. - فتح الباري. جـ8 ص608 [↑](#footnote-ref-98)
98. - شرح النووي على صحيح مسلم. جـ3 ص5 [↑](#footnote-ref-99)
99. - صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسِّيَر، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر. [↑](#footnote-ref-100)
100. - البخاري في مواضع، منها: كتاب الجهاد والسِّيَر، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة . ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب استحباب الدعاء بالنصر عند لقاء العدو. [↑](#footnote-ref-101)
101. - البخاري. كتاب الوضوء، باب إذا ألقي على ظهر المصلي قذر أو جيفة لم تفسد عليه صلاته.... ومسلم. كتاب الجهاد والسير، باب مَا لَقِي النَّبِي صلى الله عليه وسلم مِنْ أَذَى الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ. [↑](#footnote-ref-102)
102. - أي أذهبت كل شيء. وأصل الحَصّ: إذهاب الشعر عن الرأس بحلق أو مرض. [↑](#footnote-ref-103)
103. - البخاري في مواضع من كتاب التفسير من صحيحه، منها تفسير سورة الدخان. ومسلم، في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب الدخان. [↑](#footnote-ref-104)
104. - رواه أبو نعيم في دلائل النبوة، الباب السادس والعشرين. والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب الحج، باب ما للمحرم قتلهُ مِنْ دَوَابِّ الْبِرِّ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ. والطبراني في معجمه في ترجمة رقية بنت النبي صلى الله عليه وسلم. ورواه الحاكم في المستدرك في تفسيره سورة المسد، وسماه: لهب بن أبي لهب، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وانظر مختلف التفاسير في تفسير سورة المسد، أو أول النجم، أو الكهف(18) أو المائدة (4).

     [↑](#footnote-ref-105)
105. - ديوان حسان بن ثابت، وانظر: إمتاع الأسماع بما للنبي صلى الله عليه وسلم من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع. للمقريزي [↑](#footnote-ref-106)
106. - سنن الترمذي، كتاب المناقب، مناقب ثقيف وبني حنيفة. [↑](#footnote-ref-107)
107. - انظر طبقات ابن سعد، غزوة رسول الله، صلى الله عليه وسلم الطائف [↑](#footnote-ref-108)
108. - انظر سنن أبى داود، كتاب الخراج باب مَا جَاءَ فِي خَبَرِ الطَّائِفِ. وسنن البيهقي الكبرى، كتاب الحيض. باب المشرك يدخل المسجد غير المسجد الحرام ، ومسند أحمد، مسند الشاميين، حَدِيثُ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. [↑](#footnote-ref-109)
109. - انظر فتح الباري لابن حجر، جـ8 ، ص101 [↑](#footnote-ref-110)
110. - البخاري، كتاب الجهاد والسِّيَر، باب الدعاء للمشركين بالهدى ليتألفهم، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب مِنْ فَضَائِلِ غِفَارَ وَأَسْلَمَ وُجُهَيْنَةَ ... [↑](#footnote-ref-111)
111. - فتح الباري، جـ6 ص108 [↑](#footnote-ref-112)
112. - صحيح مسلم ، كتاب الإيمان، بَاب الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ مَنْ مَاتَ عَلَى التَّوْحِيدِ دَخَلَ الْجَنَّةَ قَطْعًا. [↑](#footnote-ref-113)
113. - شرح النووي على مسلم ، جـ1 ، ص101 [↑](#footnote-ref-114)
114. - الفرث: هو ما في كرش الذبيحة. [↑](#footnote-ref-115)
115. - السنن الكبرى للبيهقي، وصحيح ابن خزيمة، والمستدرك للحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين، وانظر السيرة الشامية "الجامعة" وسير ابن كثير ومختلف كتب السيرة في وقائع غزوة تبوك، وانظر تفسير ابن كثير والقرطبي والزمخشري وابن الجوزي وسائر التفاسير عند الآية: 117 من سورة التوبة. [↑](#footnote-ref-116)
116. - مسند أحمد، باقي مسند الأنصار، مُسْنَدُ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ الأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وصحيح ابن حبان، كتاب السير، باب الخيل. وانظر السيرة الشامية، أبواب المغازي، الباب الثلاثون في غزوة تبوك.

     [↑](#footnote-ref-117)
117. - البخاري، كتاب الجمعة، بَاب تَحْوِيلِ الرِّدَاءِ فِي الاسْتِسْقَاءِ. ومسلم، كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدُّعَاءِ فِي الاِسْتِسْقَاءِ.

     2- صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، بَاب هَلاكِ هَذِهِ الأُمَّةِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ. [↑](#footnote-ref-118)
118. [↑](#footnote-ref-119)
119. - صحيح مسلم، كتاب الإمارة، بَاب قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ.

     2- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام. [↑](#footnote-ref-120)
120. [↑](#footnote-ref-121)
121. - صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب بَيْعِ الْبَعِيرِ وَاسْتِثْنَاءِ رُكُوبِهِ. وانظر صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع .... [↑](#footnote-ref-122)
122. - دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني، رقم الحديث: 372

     2- سنن النسائي، كتاب الجنائز، باب غَسْلُ الْمَيِّتِ بِالْحَمِيمِ. وانظر الأدب المفرد، كتاب الأذكار، باب من دعا بطول العمر، والمعجم الكبير للطبراني، رقم الحديث: 446 ، ومسند أحمد رقم الحديث: 25756 . [↑](#footnote-ref-123)
123. [↑](#footnote-ref-124)
124. - السنن الصغرى للبيهقي، كتاب النفقات، باب أي الوالدين أحق بالولد. وانظر سنن أبي داود، كتاب الطلاق، باب إِذَا أَسْلَمَ أَحَدُ الأَبَوَيْنِ مَعَ مَنْ يَكُونُ الْوَلَدُ؟ وسنن النسائي الكبرى، كتاب الفرائض، باب الصبي يسلم أحد أبويه.

     [↑](#footnote-ref-125)
125. - البداية والنهاية لابن كثير، جـ7 ص97 [↑](#footnote-ref-126)
126. - سنن الترمذي، كتاب المناقب، مناقب البراء بن مالك رضي الله عنه. [↑](#footnote-ref-127)
127. - انظر الإصابة، ترجمة البراء رضي الله عنه، ومثله في الاستيعاب، وفي أسْد الغابة. والفتاوى لابن تيمية جـ11 ، ص77. والخبر رواه الحاكم في المستدرك وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي. [↑](#footnote-ref-128)
128. - هي جزيرة دارين المعروفة على الخليج العربي قرب سواحل القطيف، كما ذكره ابن كثير في مواضع من تاريخه. [↑](#footnote-ref-129)
129. - المراد بالغيلة هنا: الخدعة في الحرب. [↑](#footnote-ref-130)
130. - انظر فتاوى ابن تيمية، جـ11، ص278، والبداية والنهاية لابن كثير، السنة الحادية عشرة، وكتاب دلائل النبوة فيها، جـ6، ص536 و ص646 ط دار المعرفة [↑](#footnote-ref-131)
131. - البداية والنهاية لابن كثير، أحداث سنة ست عشرة جـ7، ص69 ط دار المعرفة. [↑](#footnote-ref-132)
132. - صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدراً. [↑](#footnote-ref-133)
133. - فتح الباري لابن حجر، ط: دار المعرفة ، جـ7 ، ص383.

     [↑](#footnote-ref-134)
134. - هذا الحديث رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، جميعهم من حديت أبي هريرة رضي اللّه عنه. [↑](#footnote-ref-135)
135. - البداية والنهاية لابن كثير، جـ8 ، ص455 [↑](#footnote-ref-136)
136. - الفتاوى، جـ11 ، ص276 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-137)
137. - حياة الصحابة، الباب الخامس عشر، باب دعوات الصحابة. جـ3 ، ص325 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-138)
138. - السيرة الشامية، جماع أبواب معجزاته صلى الله عليه وسلم بإجابة دعواته. [↑](#footnote-ref-139)
139. - صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء، بَاب الْعَزْمِ بِالدُّعَاءِ

     5- صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء، بَاب بَيَانِ أَنَّهُ يُسْتَجَابُ لِلدَّاعِي مَا لَمْ يَعْجَلْ . [↑](#footnote-ref-140)
140. [↑](#footnote-ref-141)
141. - مسند الإمام أحمد، بِدَايَة مُسْنَد عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ، الحديث رقم 2666

     [↑](#footnote-ref-142)
142. - الأبيات في الديوان المنسوب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ونسبها الحافظ ابن حجر في (الدرر الكامنة) إلى ابن البصيص نجم الدين المجود، حموي توفي سنة 716هـ . قلت: وهو أشبه. والله أعلم . [↑](#footnote-ref-143)
143. - انظر تفسير الطبري والقرطبي وابن كثير، سورة يوسف، الآية: 100 [↑](#footnote-ref-144)
144. - انظر البداية والنهاية لابن كثير، أحداث السنوات: (650 إلى 658 هـ) [↑](#footnote-ref-145)
145. - رواه الترمذي في سننه وصححه، كتاب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله . [↑](#footnote-ref-146)
146. - متفق عليه واللفظ للبخاري، كتاب التفسير، سورة الطلاق، ومسلم كتاب الطلاق، باب أن تخيير المرأة لا يكون طلاقاً إلا بالنية. [↑](#footnote-ref-147)
147. - رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الإيمان، بَاب الْحَثِّ عَلَى الْمُبَادَرَةِ بِالأَعْمَالِ قَبْلَ تَظَاهُرِ الْفِتَنِ [↑](#footnote-ref-148)